التواصل الأدبي في رحلة ابن خلدون إلى الأندلس

أ.م.د.غيداء احمد سعدون الاشلاش
جامعة الموصل \ كلية التربية للبنات
قسم اللغة العربية

The Literary Communication on Ibn Khaldūn's Journey to Andalusia

Assistant Professor Dr. Ghaida Ahmed Sa'adoun Shlash
Mosul University
College of Education for Girls
Department of Arabic language

Abstract

The present study deals with the contents of the literary communication on Ibn Khaldūn's journey to Andalusia, and what preceded it and followed in its recording in his book (The Journey of Ibn Khaldūn) or what it has been called elsewhere as (The Definition Ibn Khaldūn and his Journey to the West and the East) which is originally related to his famous book (The Lesson and the Divan of the Beginner and the Events in the Days of the Arabs, Persians and Berbers) and whose introduction is famous for it (Introduction to Ibn Khaldūn). This particular journey of Ibn Khaldūn was characterized by the abundance the of literary texts in which communication between him and Andalusians who had their place in power, and at the head of the list is Lisan al-Din Ibn al-Khatib, Sultan Ibn al-Ahmar, Minister Ibn Zamrak, and the Judge in Granada of the community , Abu al-Hasan al-Banny. These texts contains poetry and literary prose through fraternal letters studded with poetic verses. Moreover, the texts represent an official decree, or prose and poetic debates, or poems that Ibn Khaldūn recited in the presence of the rulers of Andalusia at that time. These literary texts indicate the elevation of the communicative language among these leading figures in Andalusia. They also reflect the extent of Andalusian interest in literature and social communication, which Ibn Khaldūn emphasized in his philosophy, taking into consideration that it leads to human happiness.

Key words: *Literary Communication, Ibn Khaldūn, Travel Literature, Andalusian Literature, Lisan Eddin Ibn Al-Khatib, LiteraryMassages.*

الملخص

يلقي هذا البحث الضوء على ما كان من تواصل أدبي بين ابن خلدون والأدباء الأندلسيين خلال رحلته إلى الأندلس وما سبقها وما لحقها فيما ذكره من تدوين لها ضمن كتابه (رحلة ابن خلدون) أو ما سماه في موضع آخر بـ (التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا) وهو في الأصل ملحق بكتابه الشهير (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) والذي اشتهرت منه مقدمته (مقدمة ابن خلدون).

وتميزت هذه الرحلة بالذات لابن خلدون دون غيرها من الرحلات بكثرة النصوص الأدبية التي تم التواصل فيها بينه وبين أندلسيين لهم مكانتهم في السلطة وفي مقدمتهم الوزير الأديب لسان الدين ابن الخطيب والسلطان ابن الأحمر والوزير ابن زمرك وقاضي الجماعة بغرناطة أبو الحسن البنّي النباهي.

وقد شملت هذه النصوص الشعر والنثر الأدبي من خلال الرسائل الأخوية المرصعة بأبيات شعرية، أو النصوص التي تمثل مرسومًا رسميًا، أو المساجلات النثرية والشعرية، أو القصائد التي ألقاها ابن خلدون بين يدي حكام الأندلس آنذاك وغيرها.

وهذه النصوص الأدبية تدل على رقي اللغة التواصلية بين هذه الشخصيات القيادية في الأندلس ومدى اهتمام الأندلسيين بالأدب والتواصل الاجتماعي الذي أكد ابن خلدون عليه في فلسفته مشيرًا إلى أنه يؤدي إلى سعادة الإنسان.

الكلمات المفتاحية: التواصل الأدبي، ابن خلدون، أدب الرحلة، الأدب الأندلسي، لسان الدين بن الخطيب، الرسائل الأدبية.

مدخل البحث:

سنلقي في هذا البحث الضوء على صلة وتواصل وأدبية ابن خلدون مع الأندلسيين، وهو المعروف بأنه مؤسس علم الاجتماع عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي المتوفى سنة 808هـ، عرّف بنفسه من خلال كتابه (رحلة ابن خلدون) أو المسمى بـ(التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا) موثقاً فيه سيرة حياته ورحلاته، وأول جملة ابتدأ بها هذا الكتاب معرّفًا بنفسه قال: ((وأصل هذا البيت من إشبيلية))([1])، لكن ولادته كانت في تونس بعد انتقال أسلافه إليها، وقد وجدنا أن رحلة ابن خلدون الأولى الى الأندلس كانت بين سنة (764-766هـ)، وهي رحلة مميزة عن غيرها من الرحلات التي ذكرها غربًا وشرقًا؛ لما ضمته من تواصل أدبي أثار اهتمامنا بينه وبين القائمين على غرناطة آنذاك، وبخاصة ما كان من تواصل أدبي بينه وبين صديقه لسان الدين ابن الخطيب المتوفى سنة (776هـ) [(2)].

---

1 رحلة ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي ت808هـ ، تح: محمد بن تاويت الطنجي، 27.

2 وهو محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن سعيد بن علي بن احمد السلماني، المكنى بأبي عبد الله، والمشهور بـ لسان الدين ، وكان صديقه ابن خلدون يلقبه بـ لسان الملة والدين ، كما يلقب ايضاً بـ ذي الوزارتين أي وزارتي القلم والسيف، وقد لُقِب بذلك ايضاً ابن خلدون، وقد لُقِّب ايضاً بـ ذي العُمْرين لما كان قد أصابه من أرق سخره لكتاباته، ولقّب أيضًا بـ ذي الميتتين حيث دفن ثم نبش وأُلقي بجثمانه في النار ثم أعادوا دفن رفاته. وقد ذكر المقَّري أنه سمع في المغرب بعض الرؤساء يقول: لسان الدين ذي الوزارتين، وذي العمرين، وذي الميتتين، وذي القبرين؛ ينظر: نفح الطيب من غصن

فحينما يُذكر ابن خلدون يُذكر ابن الخطيب، وحينما يذكر ابن الخطيب يذكر ابن خلدون؛ وذلك لما عُرف عنهما من تواصل امتد لسنوات طوال موثق في مؤلفاتهما، وكان ابن خلدون قد تعرّف على ابن الخطيب في عام (761هـ) حينما ذهب الوزير ابن الخطيب إلى فاس وتوطدت صداقتهما هناك في المحافل الأدبية التي أُقيمت، إذ توافقت أفكارهما، فقد كان كلاهما أستاذ عصره في التفكير والكتابة، وكلاهما وزيراً مستبداً، ومستشاراً للأمراء والسلاطين [3].

تداعيات التواصل في رحلة ابن خلدون الى الأندلس:

يمثل التواصل عند ابن خلدون ركناً أساساً في حياته وفي تعامله مع مجريات الأحداث، وقد أكد في فلسفته الاجتماعية على ضرورة تواصل الإنسان مع غيره فهو كائن ميال للاجتماع بفطرته، والجماعة ليست إلا وسيلة لسعادة الفرد [4].

وتعد رحلة ابن خلدون الى الأندلس عام (764هـ) [5] أول رحلة له الى هذه البلاد التي كانت موطن أسلافه، إذ كانت لأسرته قدم راسخة في السياسة والعلم في بلاد الاندلس كما أشار ابن خلدون الى إشادة المؤرخ ابن حيان (ت 469هـ) بأسرته ومكانتهم بالأندلس في قوله: ((بيت بني خلدون الى الآن في اشبيلية نهاية في النباهة، ولم تزل أعلامه بين رياسته سلطانية ورياسة علمية)) [6]، وكان ابن خلدون يحن الى إشبيلية وقد زارها فيما بعد إذ يقول: ((وعاينت آثار سلفي بها)) [7].

وكثيراً ما يشير ابن خلدون الى الأندلس مؤكداً انتماءه إليها وتعلقه بها كونها موطن أجداده، إذ تقدر مدة وجودهم في الأندلس منذ أول فتحها إلى خروجهم منها بحوالي 700سنة، ومن خلال رحلته إليها أراد أن يعيد أمجاد أجداده فيها، وقد استنتجنا ذلك من خلال بحثنا (خطاب الرحلة الأندلسية عند ابن خلدون ومقاصده) ([8]). فهذا الانتماء جعله يلتجئ الى الأندلس بعد أن استبدّت المكائد به في تونس موطن ولادته ونشأته ومن بعدها فاس، متخذاً من صداقته لوزير غرناطة ابن الخطيب ملاذاً للوصول الى مبتغاه.

أما رحلته الثانية للأندلس في سنة (776هـ) فكانت في سبيل التوسط لابن الخطيب لفك حبسه وقد فشل في ذلك ولم يطل المكوث بها، ولم تتضمن نصوصًا أدبية[9].

الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب: المقّري 1401هـ ، 246/6؛ وينظر: ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام: لسان الدين بن الخطيب، تح: د. محمد الشريف قاهر، 53-54 .

3 ينظر: لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري: محمد عبدالله عنان، 57.

4 ينظر: رحلة ابن خلدون، 6.

5 ينظر: مقدمة ابن خلدون: لابن خلدون، دراسة احمد الزعبي، انه اخطأ في سنة رحيله الى الاندلس بأنها سنة 664هـ . والصحيح ما اثبتناه.

6 م.ن، 11.

7 رحلة ابن خلدون، 85.

8 منشور في مجلة الجامعة العراقية ضمن العدد الخاص بأبحاث المؤتمر العلمي الدولي الرابع المشترك بين الجامعة العراقية وجامعة دهوك بالتعاون مع مركز نون للبحوث والدراسات المتخصصة للمدة من 16-17 كانون الأول 2020م، مج1/487-516.

9 ينظر: رحلة ابن خلدون ، 186.

ويبدو أن اختياره للأندلس كان أيضاً لقرب عادات أهلها وصفاتهم ولغتهم مما هو موجود في موطنه الذي ولد ونشأ فيه تونس والمغرب العربي كي لا يحس بالغربة فيها بعد فراق ما تعود العيش ضمنه، وليضمن التواصل مع المجتمع الجديد لوجود أواصر مشتركة مهمة مؤثرة من مكان وزمان وتعامل مع الناس وتوافق في الأعراف وغيرها، وهو ما يعد من أساسيات وركائز التواصل الأدبي [10].

ومن الاطلاع على مجمل رحلاته التي وثقها في كتابه (رحلة ابن خلدون) نلاحظ طغيان النصوص الأدبية في رحلته الأولى الى الاندلس بالذات دون غيرها من رحلاته، ويبدو أن ذلك يعود الى ما ذكره في مقدمته عن اهتمام الأندلسيين في عصره بالدرجة الأولى باللغة العربية وأدبها مقارنة مع ما كان في العصور السابقة ومقارنة لها مع غيرها من البلدان [11]، فضلاً عن انبهاره بذكاء أهل الأندلس إذ يقول في مقدّمته: ((فتجد لأهل الأندلس من ذكاء العقول وخِفّة الأجسام وقبول التعليم ما لا يوجد لغيرهم))([12])، وهو بذلك يشيّد تواصلاً بينه وبين الأندلسيين من خلال تلك الاهتمامات الأدبية.

النصوص الأدبية في رحلة ابن خلدون الى الأندلس:

أكد ابن خلدون وهو يؤرخ لسيرته الذاتية ورحلته الى الأندلس على ذكر النصوص الأدبية النثرية والشعرية التي تضمنتها متمثلة تلك النصوص بما كان ممهدًا للرحلة وما كان آنيًا فيها وما كان تاليًا لها تعزيزًا للتواصل بينه وبين القائمين على الحكم في غرناطة آنذاك، وهي كما يأتي:

النصوص النثرية:

والتي كان أغلبها على شكل رسائل رغم ان ابن خلدون لم يسمِّ (الرسائل) بهذا المصطلح صراحة، وانما جاء بتسميات أخرى مثل: (كتاب) [13]، أو (مخاطبات) [14]، أو (مساجلة) [15]، وفي موضع آخر ذكر اسم (براءة) وهو في مصطلح المغاربة والأندلسيين: الرسالة كيفما كان موضوعها، ولا يقصدون فيها المعنى اللغوي للبراءة [16].

ومن هذه النصوص أيضاً ما كان ديوانياً رسمياً يسميه (مرسوم) [17]، ومنها ما كان أخوياً، وأحياناً يدمج فيها النوعين لكون المخاطَبين من أصحاب النفوذ السياسي هم أصدقاؤه في الوقت نفسه.

وكثيراً ما تتخلل هذه الرسائل أبياتًا شعرية وبخاصة في مخاطبات لسان الدين بن الخطيب التي يرسلها إليه ويرد

---

10 ينظر: استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية: عبدالهادي بن ظافر الشهري، 10، وينظر: لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة: د. عبد الفتاح أحمد يوسف، 63- 66.

11 ينظر: مقدمة ابن خلدون، 471.

12 م.ن، 119.

13 ينظر: رحلة ابن خلدون، 84.

14 ينظر: م.ن، 113، 118.

15 ينظر: م.ن، 113.

16 ينظر: م.ن، 90 هامش 4.

17 ينظر: م.ن، 91.

عليها في أكثر الأحيان، وهذا النوع من الرسائل يمكن أن نطلق عليه اسم الرسائل الجوابية او المراجعات[18].

وأكثر هذه الرسائل التي ضمّنها ابن خلدون رحلته الى الأندلس كانت بينه وبين لسان الدين بن الخطيب، ومنها ما كان من السلطان ابن الأحمر بقلم وزيره لسان الدين بن الخطيب، متمثلة فيما كان بينهما من مراسلات وهي كثيرة مبثوثة في كتاب ((رحلة ابن خلدون)) [19]، وان اعتذر في بعض الأحيان عن عدم تثبيتها بقوله: ((لا يحضرني الآن كتابه)) [20]، أو أنه يشير الى ذكر منشور رسمي او تواصلي أخوي ويكتب (هذا نصه) ثم لم يثبته ويضع بياضًا بعده في جميع الأصول حسبما يذكر المحقق معللاً ذلك بأنه ربما أراد تثبيته فيما بعد فوافته المنية قبل أن يتيسر له ذلك [21].

ونجد له تواصلاً أدبياً مستمراً حتى بعد رحيله عن الأندلس مع أدباء ومتنفذين أندلسيين آخرين مثل ابن زمرَك كاتب سر السلطان ابن الاحمر[22]، وكذلك مراسلاته مع قاضي الجماعة بغرناطة أبي الحسن علي بن الحسن البُني على شكل مراسلات يتضمنها الشعر والنثر [23]، ولكنها ليست كثيرة ومتميزة كتلك التي كانت بينه وبين لسان الدين بن الخطيب؛ وذلك لما تربطه مع ابن الخطيب من روابط صداقة بينهما لسنوات عديدة، فضلاً عن إعجابه بأدب ابن الخطيب الذي اعترف به وضمّنه كتبه في عدة مواضع، منها قوله: ((وكان الوزير ابن الخطيب آية من آيات الله في النظم والنثر، والمعارف والأدب، لا ساجل مداه، ولا يُهتدى فيها مثل هُداه)) [24]، حتى أنه انتبه الى إسهابه في ذكر مخاطباته مع ابن الخطيب في كتابه (رحلة ابن خلدون) فاعتذر عن ذلك بأنها ضمن التعريف بنفسه وهي غاية الكتاب وذلك في قوله: ((وإنما طولتُ بذكر هذه المخاطبات، وإن كانت فيما يظهر، خارجة عن غرض الكتاب، لأن فيها كثيراً من أخباري. وشرح حالي، فيستوفي ذلك منها مَن يتشوق إليه من المطالعين للكتاب)) [25].

وبعد هذا القول يلتزم ابن خلدون بعدم ايراد مخاطبات بينه وبين لسان الدين إلا بذكر مخاطبتين إحداهما بعد فرار ابن الخطيب الى تلمسان مبتعداً عن السلطان ابن الأحمر وقد ضمنها رسالة الى ابن الأحمر وثّقها ابن خلدون معتذراً عن تضمينها لبُعدها عن غرض الكتاب بسبب أهميتها قائلا: ((فخاطبه من هنالك بهذا الكتاب، فرأيت أن أثبته هنا وإن لم يكن من غرض التأليف لغربته، ونهايته في الجودة، وإن مثله لا يُهمل من مثل هذا الكتاب، مع ما فيه من زيادة الاطلاع على أخبار الدول في تفاصيل أحوالها)) [26].

أما الرسالة الأخرى فكانت تهنئة من ابن الخطيب لابن خلدون بمولود له، يتضمنها الشعر دون توثيق لرد ابن

---

18 وهي الرسائل النثرية التي صاغها كاتبوها لمخاطبة أندادهم من الأدباء والقضاة والعلماء أو غيرهم وأرسل أولئك أجوبة عليها النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين: د. حازم عبد الله خضر، 169.

19 ينظر: رحلة ابن خلدون، 84، 90، 100، 100، 108، 113، 116، 118، 124، 129، 174، 175.

20 ينظر: م.ن، 124.

21 ينظر: م.ن، 86.

22 ينظر: م.ن، 210-220.

23 ينظر: م.ن، 218- 220.

24 ينظر: م.ن، 135.

25 م.ن، 118.

26 ينظر: م.ن، 129.

خلدون عليها [27].

في حين أثبت لسان الدين ابن الخطيب في كتبه رسائل أخرى كانت بينه وبين خلدون لم يذكرها ابن خلدون هنا، كما ورد في رسالة ابن الخطيب الى ابن خلدون عندما تولى الكتابة عن السلطان ابي حمو، وهي طويلة يتخللها الشعر[28]؛ وربما يعود إغفال ابن خلدون لذكرها متعمداً كون ان نفسه لم تسامح بعد ابن الخطيب الذي وشى له الواشون وأثاروا غيرته من ابن خلدون فتغير عليه اثناء إقامته في الأندلس مما أدى الى رحيله عنها إلى بجاية بعد أن وجه له سلطانها دعوة، ولكنه لم يذكر السبب للسلطان ابن الأحمر صراحة لإبقاء المودة كما صرّح بذلك في قوله ((فاستأذنت السلطان ابن الأحمر في الارتحال اليه– يقصد سلطان بجاية– وعميتُ عليه شأن ابن الخطيب ابقاءً لمودته، فارتمض لذلك، ولم يسعه إلا الإسعاف، فودّع وزوّد)) [29].

وإذا تتبعنا تاريخياً النصوص النثرية المتواصلة بين ابن خلدون والأندلسيين وهي أكثر من النصوص الشعرية فنقف عند: –

النصوص النثرية التي مهّدت لرحيله الى الأندلس:

فقد أشار ابن خلدون في تأريخه إلى أنه قد راسل السلطان ابن الأحمر ووزيره لسان الدين بن الخطيب قبل ذهابه الى غرناطة بقوله: ((وحططتُ بجبل الفتحِ وهو يومئذ لصاحب المغرب، ثم خرجتُ منه الى غرناطة، وكتبتُ الى السلطان ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب بشأني)) ([30]). ولكنه لم يوثق ما كتبه إليهما في هذا الكتاب ولم أجده عند غيره ممن كتب عن رحلته الى الأندلس من كتب لسان الدين بن الخطيب والسلطان ابن الأحمر، وربما يعود عدم تدوينه لهذه الرسائل الى عدم اعتداده بها من الناحية الأدبية والله أعلم لأنه كما سيرد كان يحس بالضآلة الأدبية حينما يقارن نتاجه مع نتاج ابن الخطيب الأدبي.

بعدها يذكر ابن خلدون في توثيقه لرحلته الى غرناطة وما وصله من شعرٍ ونثرٍ لابن الخطيب يرحب فيهما بقدومه، فيقول في توثيق ذلك:

((وليلةَ بتُّ بقرب غَرناطة على بريدٍ منها، لقيني كتابُ ابن الخطيب يهنّئني بالقدوم ويؤنسني)) ([31]).

فنجده يذكر لفظ (كتاب) وقد ورد في اللغة ((الكتاب اسمٌ لما كُتِبَ مجموعًا .... قيل: كتبتُ الكتابَ لأنه يجمَع حرفًا الى حرف)) ([32])، ثم يذكر (نص) الكتاب وهو من أربعة أبيات يلحقها نص نثري يقول في أوله مبتدئاً بالقسم والإسهاب فيه: ((**أقسمتُ بمن حجّت قريش لبيته، وقبرٌ صرفت أزمَّة الأحياء لميتهِ، ونورٌ ضربت الأمثالُ بمشكاته وزيتِه**)) ([33]).

فلسان الدين يقسم في تلك الأبيات وما تلاها من نص نثري قسماً غليظاً لابن خلدون بمدى فرحه بمقدمه لغرناطة، ونجده يلح على ذكر الأماكن ودلالاتها الضمنية في هذا القسم حيث الإشارة الى قدسية مكة والمدينة فضلاً عن

27 ينظر: م.ن، 174–179.

28 ينظر: الإحاطة في أخبار غرناطة: لسان الدين بن الخطيب ت776هـ ، 4/523–527.

29 رحلة ابن خلدون، 91.

30 م.ن، 84. وجبل الفتح نسبة الى الفتح العربي الإسلامي وهو المعروف بجبل طارق.

31 م.ن،84. وجاء في لسان العرب "البريد: فرسخان" مادة برد ،1/ 198.

32 لسان العرب ،3/216–218 مادة كتب .

33 رحلة ابن خلدون، 84.

نور الله الذي اقتبس الدلالة عليه من القرآن الكريم في قوله تعالى:((اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ))([34]).

وهذا القسم الغليظ يشهد لصدق مشاعره تجاه ابن خلدون، ولا يخفى ما في القسم من قوة إيحائية للمخاطب بصدق القول وبالتالي فإنه من أفضل أساليب الإقناع والتأثير بالمخاطَب([35])، ليكون جواب القسم تخيير بين رجوع الشباب ولقاء ابن خلدون بقوله:((**لو خيّرتُ أيها الحبيب الذي زيارته الأمنية السنية، والعارفة الوارفة([36])، واللطيفة المُطيفة، بين رَجع الشباب يقطرُ ماءً، ويرف نماءً و، ويغازل عيون الكواكب، فضلاً عن الكواعب، إشارةً وإيماءً، بحيث لا الوخط([37]) يُلم بسياج لمته، أو يقدح ذباله([38]) في ظلمته، أو يقوم حواريه في ملّته، من الأحابش وأمّته، وزمانه رَوحٌ وراح، ومَغذى في النعيمِ ومَراح، وقصفٌ صُراح، ورقى وجراح، وانتخابٌ واقتراح، وصدورٌ ما بها إلا انشراح، ومسرّاتٌ تردفها أفراح، وبين قدومك خليع الرسن([39]) ممتّعاً- والحمد لله- باليقظة والوسن، محكّماً في نُسك الجُنيد([40]) أو فتك الحسن([41]) مُمتّعاً بظرف المعارف، مالئاً أكفّ الصيارف، ماحياً بأنوار البراهين شُبه الزّخارف**))(42)

فنجده منادياً وملقباً ابن خلدون بقوله (أيها الحبيب)، ومسهباً في ذكر الشباب وصوره ونعيمه بمختلف التوازيات اللفظية التي تضفي التنغيم على النص النثري الراقص بنبض الشباب وإيحاءاته، مقابل الابتهاج بقدوم ابن خلدون ليوصل الفكرة عن المبتغى والمقصد التواصلي الذي يبتغيه مع ابن خلدون.

ثم يليه المقطع الثالث من النص النثري للسان الدين الذي يفصح من خلاله عن نتيجة المقارنة بترجيح لقاء ابن خلدون على رجوع الشباب الذي يحلم به كل إنسان وذلك بقوله: ((**لما اخترت الشباب وإن شاقني زمنه ، وأعياني ثمنه، وأجرَتْ سَحابَ دَمعي دِمَنه، فالحمد لله الذي رقّى جنون اغترابي ، وملّكني أزمة آرابي ، وغبّطني بمائي وترابي، ومألف أترابي ، وقد أغصني بلذيذ شرابي ، ووقع على سطوره المعتبرة إضرابي، وعجّلتُ هذه مغَبّطةٌ بمُناخ المطية، منتهى الطيّة، وملتقى للسعود غير البطية، وتهنّي الآمال الوثيرة الوَطية**))([43])، علماً أن عمر لسان الدين آنذاك كان يربو على الخمسين عاماً لكنه رجح كفة فرحته واغتباطه بابن خلدون على رجوع

34 سورة النور /35.

35 ينظر: استراتيجية الخطاب-مقاربة لغوية تداولية، 538.

36 العارفة: العطية، والوارفة: المتسعة.

37 الوخط: الوخط من الشيء النبذ منه، والواخط من استوى سواد شعره ببياضه لسان العرب مادة وخط .

38 ذبالة: فتيلة.

39 الرّسن: الزمام في الدابة.

40 هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد الخزاز القواريري، الزاهد المشهور؛ أصله من نهاوند ومولده ونشأته في العراق ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ابن خلكان 681هـ ، تح: إحسان عباس،373/1.

41 يريد أبو علي الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن الصباح المعروف بأبي نواس الحكمي الشاعر الماجن المشهور ينظر: وفيات الأعيان،2/ 95 .

42 رحلة ابن خلدون،84-85.

43 م.ن، 84.

الشباب معللاً ذلك بعدة أسباب لإقناع ذاته والمتلقي وبخاصة المقصود بالتواصل صديقه الحميم ابن خلدون حامداً الله على حسن اختياره ، فنجده يسهب في الوقوف عند المعنى الواحد بألفاظٍ وصورٍ عدة، تسودها الأساليب البلاغية العديدة كالجناس والكناية والتشبيه وغيرها، من ذلك وصفه لمشاعره تجاه هذه الزيارة لابن خلدون بأنها (الأمنية السنية) أي الرفيعة القدر والمكانة، موازناً بين (الأمنية) و(السنية) في اللفظ، كذلك في قوله(العارفة) و(الوارفة) أي العطية المتسعة، و(اللطيفة) و(المنيفة) أي التي تطوف وتجول في البلاد، مناسباً التنغيم بين الألفاظ، مما يظهر براعة لسان الدين في اختيار ألفاظه المناسبة للمعاني والمعبرة عنها فضلاً عن سعة مخزونه اللغوي، إذ يورد للمعنى الواحد تعبيرات وأساليب عدة، وهو ما يثير إعجاب ابن خلدون –المقصود من الخطاب– الذي يفضل اللفظ على المعنى ويعلي مكانته كما أفصح عن ذلك في مقدمته المشهورة بقوله: ((واعلم أنَّ صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما هي في الألفاظ لا في المعاني، وإنما المعاني تبعٌ لها وهي الأصل))([44])، وكل تلك الألفاظ التي ذكرها لسان الدين متضمنة في جملة اعتراضية للوصول إلى جواب الشرط لـ (لو)، مما يوضح أسلوب لسان الدين في الاستطراد بالألفاظ وتكراره للمعاني وبالتالي يؤدي إلى اسهابه في خطاباته النثرية بالنسبة للمعاني التي يبتغيها. ولا يخفى ما في ذلك من التأكيد على تلك المعاني أيضاً، وبالتالي فهو وسيلة من وسائل التأثير والإقناع للمتلقي أو المخاطب في توصيل الفكرة التي يبتغيها مثل ابتهاجه بوصول ابن خلدون إلى غرناطة بهذا النص.

ثم يذكر أنه لابتهاجه بقدومه كان عليه أن يستقبله منذ وصوله الى الصحراء بل يزيد على ذلك بأنه كان لزاماً عليه استقباله مما هو أبعد حيث ما وراء البحار، بقوله: **((فما شئت من نفوس عاطشة الى ريّك، متجمّلة بزيّك، عاقلة خطا مهريّك، ومولى مكارمه نشيدة أمثالك، ومظانُّ مثالك، وسيصدقُ الخبر ما هنالك، ويسع فضل مجدك في التخلّف عن الإصحار، لا بل للقاء من وراء البحار، والسلام))** ([45]).

فابن الخطيب يسهب في النص النثري ويستطرد في المعنى ذاته بعدة أوجه مما يثبت ثراءه اللغوي ومداد قلمه الى أن ينهي النص بقوله (والسلام) إنهاءً للرسالة الترحيبية، والتي تعد النص الوحيد الذي أثبته ابن خلدون ووثقه في سيرته مما يسبق وصوله الى الأندلس، رغم أنه يثبت سبقه بكتابة نصين موجهين الى السلطان ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب لم يثبتهما ربما لعدم نضوجهما الأدبي نسبة الى كتاب ابن الخطيب هذا.

النصوص النثرية الأدبية أثناء إقامته في الأندلس:

وثّق ابن خلدون وقت وصوله الى الأندلس بقوله: ((وذلك ثامن ربيع الأول عام أربعة وستين))([46])، ثم استرسل في ذكر حفاوة القائمين على البلاد به، وذكر النصوص الأدبية التي تواصل بها مع الأندلسيين أثناء إقامته في غرناطة فكان أغلبها شعرية، أما النثرية فقد وثّق نصين فقط للسان الدين بن الخطيب، وأشار إلى أنه قد كتب خطاباً الى الوزير لسان الدين يستأذنه فيه بإحضار عائلته، لكنه لم يوثقه وإنما وثّق رد ابن الخطيب عليه فقط([47])الذي يقول فيه:

((سيّدي، قَدِمْتَ بالطّيرِ الميامين، على البلد الأمين، واستضفت الرِّفاءَ الى البنين، وَمُتِّعْتَ بطولِ السنين. وصلتني البَراءةُ المعربة عن كَثَبِ اللقاء، ودُنوِّ المزار، وذهاب البُعدِ، وقرب الدار؛ واستفهَمَ سيّدي عمّا عندي

44 مقدمة ابن خلدون، 655.

45 رحلة ابن خلدون،85.

46 م.ن، 85.

47 ينظر: م.ن،90.

في القدوم على المَخدوم، والحقُّ أن يتقدَّم سيّدي إلى البابِ الكريم، في الوقتِ الذي يجد المجلس الجُمهوري لم يُفِضْ حَجيجُه، ولا صَوَّح بهيجُه، ويصل الأهل بعده إلى المحل الذي هيأته السعادة لاستقرارهم، واختاره اليُمن قبل اختيارهم، والسلام)) [48].

وقد يعود عدم توثيق طلب ابن خلدون إلى عدم رضاه عما كتب إزاء مقارنته بما كتبه ابن الخطيب من ردٍ مسبوكٍ أدبياً من حيث المضمون والفن، رغم أنه لا يتجاوز الأسطر الستة على غير عادة ابن الخطيب في الاستطراد، لكن فيه الكثير من المعاني، ويسوده السجع والصور البلاغية، وهو أقصر نص وثّقه ابن خلدون للسان الدين في هذا الكتاب.

ولو وقفنا عند ذكر الألقاب فيه لوجدناه يكتفي بلقب (سيدي) الذي يكرره في هذا النص القصير ثلاث مرات وهو اللقب الذي اعتمده لسان الدين في أغلب رسائله مع ابن خلدون الموثقة في كتاب (رحلة ابن خلدون)، رغم أن منصب لسان الدين أعلى، وعمره أكبر، ومكانته أرقى لكنه لا يتوانى عن إكرام ابن خلدون في مناداته بكل ما يعلي شأنه من ألقاب، ومع هذا فإن لقب (سيدي) لقب رسمي نسبة إلى الألقاب الأخرى التي لقبه بها في رسائله السابقة واللاحقة لرحلته إلى الأندلس، وهذا متداول وشائع لحد الآن في المغرب العربي بإطلاق (سي) قبل الاسم عند مناداة الأشخاص احترامًا.

وربما يعود الاختصار في هذه الرسالة على غير عادة لسان الدين الى مضمونها في العتاب الممزوج بالاحترام، إذ أنه يعتب على ابن خلدون في استئذانه لإحضار عائلته من قسنطينة، ويبدو أنه قد أتاه في موعد انعقاد مجلس رسمي سماه ابن الخطيب بـ (المجلس الجمهوري) فلم يدخل إليه تأدباً، فكتب له يستأذنه، وكان المفروض عليه حسب نص لسان الدين أن يدخل المجلس ويستأذنه بحضور عائلته ثم يحضرهم.

وفي وصف عائلة بن خلدون بـ (الطير الميامين) فيه إحالة الى مرجعية ثقافية تعود الى الجاهلية في عادة السفر إذ يضرب المسافر بيده مصفقاً باتجاه طير فإن اتجه نحو اليمين فعلم أن في سفره خيراً، وان اتجه نحو اليسار تشاءم من سفره ذلك [49]. وقد وظف لسان الدين هذا المفهوم أيضاً في رسالة أخرى لابن خلدون حين رحب به بقوله في أول بيت استفتح به ذلك الترحيب بقوله [50]:

حللـــتَ حلـــول الغيـــثِ بالبلـــد المَحـــلِ علـــى الطـــائرِ الميمـــونِ والرحـــبِ والســـهلِ

فهنا ذكر (الطائر الميمون) إشارة الى السفينة التي أقلته الى الأندلس متفائلاً بقدومها من جهة اليمين. كما لو أننا قارنا بين وصفه لبلاد الأندلس قبل وصول ابن خلدون في هذا البيت بقوله (البلد المحل)، مع وصفه الوارد للبلد في الترحيب بوصول أهله بقوله: (البلد الأمين) نلاحظ التضاد في الرؤية بما يتناسب مع عدم وجود ابن خلدون في هذا البلد، واثناء وجوده فيه، وكأن لسان الدين يربط بين النصين الأدبيين في الترحيب بابن خلدون أولاً والنص الآخر في الترحيب بأهله.

أما عن قصده في (استضفت الرفاء الى البنين) فيعني بالرِّفاء: الالتئام والاتفاق [51]، أي لممت الشمل مع بنيك، وهو توظيف من الدعاء المعروف للتملك–أي المقبل على الزواج–بالرفاء والبنين، وهو مما يستعمل الى وقتنا

48 م.ن، 90.
49 ينظر: الأنواء في مواسم العرب: ابن قتيبة الدينوري ت 276هـ ، 168.
50 رحلة ابن خلدون، 84.
51 ينظر: لسان العرب المحيط، مادة رفأ ، ج1194/1.

الحاضر، أو قولهم (بالرفاه والبنين) وهو من الأدعية الجاهلية التي نهى عنها الرسول (ﷺ) [52].

كما نجده يدعو له بطول العمر بقوله (ومُتِّعتَ بطول السنين) والأدعية من الأساليب المختصة بالمخاطبات وأمثالها كما يقول ابن خلدون [53]. وكثيراً ما يطيل لسان الدين، من ذكرها في مخاطباته مع ابن خلدون.

هذا وان لسان الدين يعقب الدعاء بقوله:**(وصلتني البراءة)** أي الرسالة حسب المصطلح المغربي والأندلسي([54])، وهنا ربما تعمد ابن الخطيب هذا الاسم لما يتناسب مع الموقف حيث يبرئ ذمة ابن خلدون بأنه قد حاول الاستئذان من الوزير لجلب أهله لكن الوزير كان في اجتماع.

ثم يفصّل لسان الدين في محتوى البراءة بقوله: **(المعربة عن: كثب اللقاء ودنو المراد، وذهاب البعد، وقرب الدار)** فنلاحظ تكراره للمعنى ذاته مؤكداً عليه بعدة صيغ وهذا هو دأب لسان الدين في الاستطراد، مستخدماً الترادف بين كثب ودنو، واللقاء والمزار، ثم استخدم التضاد بين القرب والبعد، وهذه الاستخدامات لا يخفى ما تعطيه للنص من الانسجام والتنغيم [55].

ثم ذكر الغرض الآخر من رسالة ابن خلدون إليه بقوله **(واستفهم سيدي عما عندي في القدوم على المخدوم)**، مشيرًا إلى استفهام ابن خلدون عن موقف لسان الدين من قدوم أهله الى غرناطة بين يدي (المخدوم) ويريد به السلطان ابن الأحمر، فنرى الالتفات الذي يوظفه لسان الدين في التنقل بين الضمائر مما يثير المتلقي.

ثم يردف ذلك معاتباً لابن خلدون بقوله: **(والحق أن يتقدم سيدي إلى الباب الكريم، في الوقت الذي يجد المجلس الجمهوري لم يفض حجيجه، ولا صوح بهيجه)** فهنا يصور المجلس السلطاني للدولة وتجمع الناس فيه تصويرًا أدبيًا وكأنهم يتدافعون الى الحج، وفي ذلك كناية عن كرم السلطان الذي أشار اليه بـ (الباب الكريم) إذ ذكر الباب وقصد صاحب المجلس وهي استعارة مكانية، ثم يصور المكان بعد انفضاض المجلس بالبيت اليابس (صوح بهيجه) بعد أن كان يافعاً بهيجاً.

ثم يعلي من شأن المكان الذي هُيّأ لأهل ابن خلدون بقوله **(ويصل الأهل بعده إلى المحل الذي هيأته السعادة لاستقرارهم، واختاره اليمن قبل اختيارهم)**، فيؤكد على إكرام السلطان لهم مكنّيًا له بلفظي (السعادة واليُمن) بأن اختار لهم مكاناً لسكناهم وأمر بتهيئته حينما طلب منه ابن خلدون أن يحضرهم الى غرناطة.

ويختم لسان الدين النص بـ (السلام) دون ذكر للتاريخ ولا لاسم المرسِل على غير عادته وعادة الكثير من أهل البلاد([56])، ويبدو أن هذه الرسالة مختصرة قصيرة لما فيها من عتاب لابن خلدون، فلم يطل بذكر الألقاب والأدعية والعمق بالمعاني وتكرارها وإنما اختصر المبتغى لأنها غير مرسلة الى مكان بعيد، والمرسّل إليه ابن خلدون موجود في الأندلس، بينما الرسائل الأخرى التي كان يرسلها لابن خلدون فقد تتجاوز الصفحات الأربعة أو الخمسة أحياناً، ولا يهم طول الخطاب وقصره إذا أدى غاية التواصل بين المتخاطبين كما يقول الدكتور أحمد مداس، موظفاً

52 ينظر: الأذكار من كلام سيد الأبرار: محي الدين أي زكريا يحيى بن شرف النووي ت676هـ ، 459-460.

53 ينظر: مقدمة ابن خلدون، 645.

54 ينظر: رحلة ابن خلدون، 90، هامش 4 .

55 ينظر: الأنساق الذهنية في الخطاب الشعري- التشعب والانسجام: د. جمال بندحمان، 314.

56 ينظر: المكان في رسائل ابي حفص الهوزني، ابن زيدون، ابي المطرف بن نميرة، لسان الدين بن الخطيب، ابي عبدالله الصغير : واقدة يوسف كريم، أطروحة دكتوراه ، 175.

الأنماط اللغوية الخاصة إبداعاً، وله دوافع اجتماعية ونفسية ([57]) .

وقد يكون هذا الاختصار متأتياً من انقلاب عاطفة لسان الدين على ابن خلدون، إذ يعقبها مباشرة ذكر ابن خلدون للسعايات التي فرّقت بينه وبين لسان الدين، ولم يكن انقلاب مشاعر لسان الدين على ابن خلدون شيئاً جديداً عليه، وانما هذا هو دأبه في تقلب الأمزجة والمشاعر تجاه من حوله من الحب والمدح الى الهجاء أحياناً.

لكن ابن خلدون حينما أحس بهذه الدسائس وهذا الانقلاب في المشاعر من لسان الدين قرر السفر الى بجاية، فوافق السلطان على ذلك بعد التماس ابن خلدون منه، وكتب له نصاً يسميه ابن خلدون ((مرسوم بالتشييع من إملاء الوزير ابن الخطيب)) ([58])، وهو النص الثاني النثري الذي وثّقه ابن خلدون في أثناء إقامته في الأندلس، ومصطلح (المرسوم) يدل على أنه كتاب رسمي صادر من السلطان على لسان وزيره.

ثم يورد ابن خلدون النص في أربعة وثلاثين سطرًا مبدوءًا بذكر مناسبته في كونه لتوديع ابن خلدون بعد أن طلب الرحيل من السلطان، فذكر ألقاب السلطان في سطرين، ثم ذكر ابن خلدون الطالب للنزوح مسهباً في ذكر ألقابه وألقاب والده في ستة أسطر، وصل فيها عدد الألقاب إلى ما يربو على الأربعين لقباً منها((**الولي الجليس، الحظي المكين، المقرَّب الأود الأحب، الفقيه الجليل، الصدر الأوحد، الرئيس العلم، الفاضل الكامل، المرفَّع الأسمى.....**)) ([59])، وهي في مجملها ألقاب رسمية تتناسب مع الخطاب الرسمي الذي وردت فيه، معللاً سبب مغادرته بأنه حنيناً الى بلده بقوله: ((**وأقام المقام الذي عيّنَ له رفعة المكان، وإجلال الشأن، الى أن عزم على قصد وطنه، أبلغه الله ذلك في ظل اليُمنِ والأمان، وكفالة الرَّحمن، بعد الاغتباط المُربى على الخبَر بالعيان، والتمسُّك بجوارِهِ بجُهدِ الإمكان، ثم قبول عذره بما جُبِلت الأنفس عليه من الحنين الى المعاهد والأوطان**)) ([60])، رغم إكرام السلطان له معدداً أساليب الإكرام تلك بقوله: ((**بعد أن لم يذخر كرامة رفيعة، ولم يحجب عنه وجه صنيعه، فولاّه القيادة والسفارة، وأحله جليساً معتمداً بالاستشارة، وألبسه من الحظوة والتقريب أبهى الشارة،...**))([61]) مسترسلاً في ذلك بعدة أسطر مقفياً نهايات الجمل بأسجاع تنغم النص وتوازي مقتطفاته، ثم يبين له انه متى ما أراد العودة الى هذا البلد فليعد مرحباً به بقوله: ((**وليرد متى شاء نميره**)) ([62]) وهي صورة بلاغية بجعل إكرام هذه البلاد له كالماء الزاكي الناجع الذي يهب الحياة.

خاتماً النص بذكر تاريخه بقوله: ((وكتب في التاسع عشر من جمادى الأولى عام ستة وستين وسبع مائة، وبعد التاريخ العلامة بخط السلطان، ونصها: (صح هذا))) ([63])، فبين ابن خلدون بهذا التوثيق الأسلوب المتبع في كتابة الرسائل الرسمية آنذاك، علماً أنه قد تولى العلامة السلطانية في شبابه بتونس قبل رحلته الى الأندلس وذكر ذلك وعرّف بهذه المهنة بقوله: ((فكتبت العلامة للسلطان، وهي وضع (الحمد لله والشكر لله) بالقلم الغليظ مما بين البسملة وما بعدها، من مخاطبة او رسوم))([64]) ولكن هنا علامة السلطان(صح هذا) وبخط السلطان نفسه. وبهذا

57 ينظر: لسانيات النص–نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري،20.

58 رحلة ابن خلدون، 91.

59 م.ن، 91.

60 م.ن،91.

61 م.ن، 91–92.

62 م.ن، 92.

63 م.ن، 92.

64 م.ن ، 65.

يبدو أن لكل سلطان علامة خاصة به يوثقها في رسائله وخطاباته.

وبهذا النص انتهت رحلة ابن خلدون الى الأندلس، لكن لمّا تنتهِ صلته بالقائمين عليها، إذ ظل التواصل بينهم قائمًا.

النصوص النثرية الأدبية المعززة للتواصل مع الأندلسيين بعد رحيله عن الأندلس:

لم يتوقف التواصل الأدبي بين ابن خلدون والأندلسيين بعد رحيله عن الأندلس وانما استمر بصيغة رسائل كان يتراسل بها معهم فيبعثها عن طريق الحجيج أو السفراء أو غيرهم، مثل الرسالة التي وصلت لابن خلدون من لسان الدين أثناء إقامته في تلمسان يعبّر فيها عن شوقه إليه، وهي مسهبة جداً تتجاوز الثمانين سطراً عدا الأبيات الشعرية التي تخللتها والبالغ عددها 28 بيتاً، وفيها مبالغة بذكر اشتياقه له وندمه على توديعه، نقتطف منها هذا النص الذي يقول فيه:

((أمّا الشوق فحدِّث ولا حرج، وأمّا الصبر فاسأل به أية درج، بعد أن تجاوز اللوى والمنعرَج، لكن الشدة تعشق الفرج، والمؤمن ينشقُ من رَوحِ الله تعالى الأرج، وإني بالصَّبر، على إبر الدَّبر، لا بل الضرب الهبر، ومطاولة اليوم والشهر، تحت حكم القهر، ومن للعين أن تسلو سلو المُقصِّر، عن إنسانها المُبصِر، أو تذهل ذهول الزاهد، عن سرها الرائي والمُشاهِد...)) [65].

وهي ذاتها القطعة التي اختارها السيد أحمد الهاشمي في كتابه (جواهر الأدب)، ولكنه أخطأ في قوله بأنها من قصار رسائله [66]، كما أن النص الذي أورده فيه اختلافات في عدد من الكلمات عما هي هنا وعما ورد في كتاب الإحاطة [67].

وما ورودها في كتاب جواهر الأدب إلا دليل على جودتها اللغوية والأدبية وعمق معانيها وبلاغة صورها، فهي تصور المعاني النفسية ولوعة الاشتياق تصويراً معبراً من خلال تجسيم المعنوي بالحسي، مثلاً في قوله **(أما الشوق فحدِّث عن البحر ولا حرج)** فأوحى من خلال تشبيه الشوق بالبحر بالكم والسعة الهائلة إذ لا انتهاء له مع مد البصر، كما أوحى بهيجان البحر وتلاطم أمواجه التي تناسب هيجان الروح المتشوقة الى الحبيب فأعطى صورة بصرية حركية للمعنوي، كما أنه في الصورة التي تليها يُؤكد المعنى ذاته ولكنه يقف فيها عند (الصبر) على فراق ابن خلدون وتجسيده من خلال قوله **(وأمّا الصبر فاسأل به أية درج، بعد أن تجاوز اللوى والمنعرج)** فيشخّص الصبر بأن جعله يُسأل عن أية درجة قد بلغ بعد أن طوى الكثير من المراحل التي جسدها بالرمال الملتوية والمنعطفات كناية عن المشاق التي يلاقيها المسافر في تحمله، ويسهب في تصوير الصبر ومشاقه بلغة ينغّمها بموسيقى داخلية متأتية من توظيفه لعدة آليات مثل السجع والتكرار والجناس والترصيع والتوازي، كما في قوله:

---

65 م.ن ، 100؛ اللوى: ما التوى من الرمال؛ المنعرج: المنعطف؛ اللوى: ما التوى من الرمال؛ المنعرج: المنعطف؛ الضرب الهبر: الذي يلقى قطعة من اللحم.

66 ينظر: جواهر الادب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، ج2/الباب561/2.

67 ينظر: الإحاطة في أخبار غرناطة: ج4/ 517-523.

أما الشوق فحدّث عن البحر ولا حرج

وأما الصبر فاسأل به أيّة درج

فقد وازى بين ألفاظ الجملتين توازيًا تركيبيًا غير تام وصوتيًا مما أثار تنغيماً موسيقياً مميزاً بينهما.

كذلك الترصيع أضفى تنغيمًا للنص الذي نجده في نهايات جمله المتكررة في (حرج، درج، المنعرج، الفرج، الارج)، ثم تليها الجمل المنتهية بألفاظ على وزن (فَعْل)، مختومة بحرف الراء مثل (الدبْر، الصبْر، الشهْر، القهْر)، بعدها ما ينتهي بألفاظ على وزن (مُفْعِل) مثل (المقْصِر، المُبْصِر) ... وهكذا هو دأب لسان الدين في كتاباته النثرية غالبًا في الإكثار من المحسنات البديعية، وقد استحسن المَقّري ذلك واصفاً أسلوبه في قوله : ((فإن لسان الدين وإن أطنب وأسهب، فقد سلك من البلاغة أحسن مذهب)) [68]، ولم يختلف لسان الدين في تكثيف استخدام هذه المحسنات عن دأب الكتّاب في عصره[69]، وقد أشار ابن خلدون الى ذلك بقوله: ((فقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الاسجاع والتزام التقفية، وتقديم النسيب بين يدي الأغراض وصار هذا المنثور اذا تأملته من باب الشعر وفنه، ولم يفترقا إلا في الوزن، واستمر المتأخرون من الكتّاب على هذه الطريقة)) [70].

بينما يصرح ابن خلدون في موضع آخر بأنه يبتعد عن نهج الكتّاب هذا في عصره متخذاً منهجاً منفرداً بعيداً عن المبالغة في استخدام المحسنات إذ يفتخر بأن أكثر مخاطباته كانت بالنثر المرسل لينفرد به دون أن يشاركه أحدٌ وأن ينتحل كتاباته بقوله: ((وكان أكثرها يصدر عني بالكلام المرسل، لن يشاركني أحد ممن ينتحل الكتابة في الأسجاع، لضعف انتحالها، وخفاء العالي منها على أكثر الناس ، بخلاف المرسل، فانفردتُ به يومئذٍ، وكان مُستغَرباً عندهم بين أهل الصناعة)) [71].

وفي موضع آخر يعلل ابن خلدون ابتعاده عن السجع في إجاباته على مخاطبات لسان الدين متواضعاً ومصرحاً بعدم قدرته على مجاراته، فيقول: ((فأجبته عن هذه المخاطبات، وتفاديت السجع خشية القصور عن مساجلته، فلم يكن شأوه يُلحق)) [72].

ولو وقفنا عند المصطلحات التي استخدمها ابن خلدون في هذا القول لوجدنا مصطلح (المخاطبات) ويريد بها الرسائل التي كان يبعثها له لسان الدين؛ ثم يذكر مصطلح (مساجلته)، والمساجلة في اللغة مأخوذة من (السَّجْلِ) أي: ((الدلو الضخمة المملوءة ماءً.... وساجل الرجل باراه...وأصل المساجلة أن يستقي ساقيان فيخرج كل منهما في سَجْله مثل ما يخرج الآخر، فأيّهما نَكَلَ فقد غُلِب، فضربته العرب مثلاً للمفاخرة)) [73].

والمعروف استخدام هذا المصطلح في تبادل الأشعار بأن يجيب أحد الشعراء على الآخر بالوزن والقافية ذاتها

68 نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، 207/6.

69 ينظر: الادب الأندلسي موضوعاته وفنونه: د. مصطفى الشكعة، 572-573.

70 مقدمة ابن خلدون، 645.

71 رحلة ابن خلدون، 75.

72 م.ن، 113.

73 لسان العرب المحيط، مادة سجل ، ج2/101-102.

[74]. لكننا هنا نجد ابن خلدون يستخدم هذا المصطلح للدلالة على تبادل الرسائل النثرية المزخرفة ببضعة أبيات شعرية.

ثم يذكر نص جوابه له المستغرق تسعة وستين سطراً، يتخلله بيت شعري، يبدؤه بقوله: **((سيدي مجداً وعلواً، وواحدي ذخراً مرجواً، ومحل والدي براً وحنواً...))** [75]. وهذا المقطع يبدو فيه استخدام المحسنات واضحاً والتنغيم من خلال التوازيات الآتية:

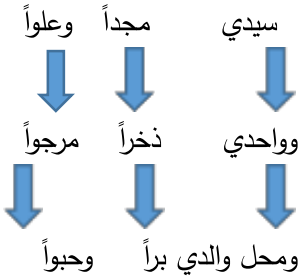

وهي ألقاب تشير إلى مكانة ابن خلدون عنده، ونجده في نص آخر أرسله له أيضاً بعد رحيله عن الأندلس يلقبه بـ: **((ولدي وساكن خلدي بل أخي وسيدي...))** [76].

ونجد ابن خلدون يتعمد أحياناً تثبيت ألقاب أطلقها ابن الخطيب عليه لم يوثقها ابن الخطيب في ذكره للرسائل ذاتها؛ مثل ذكر ابن خلدون لإحدى رسائل لسان الدين إليه يقول فيها:

((إيه سيدي! كيف حال تلك الشمائل)) ([77])، في حين أثبت لسان الدين غير ذلك في توثيقه للرسالة ذاتها فيقول **((إيه شقة النفس))** ([78]) بدل (سيدي)، فوصفه بـ(شقة النفس) أكثر حميمية من (سيدي)، وتنبي عن المكانة المميزة لابن خلدون في نفسه ومهما يكن من حال تلك الألقاب فكلها معبِّرة عن استراتيجيات التأدب التضامني التي تحدث عنها براون ويلفنسون وهو أسلوب خطابي ((ينم عن الصداقة الحميمية، والانتماء إلى الجماعة))([79])، وربما يعود ذلك الاختلاف في الروايتين للرسالة نفسها إلى بعد زمن توثيق كتاب (رحلة ابن خلدون) عن زمن كتابتها، أو إلى رغبة ابن خلدون في الإعلاء من شأن نفسه وبخاصة إذا علمنا أنها كانت بعد رحيله عند الأندلس، أي بعد أن وجد انقباض لسان الدين منه غيرةً ورضوخاً لوشاة الواشين، بينما لسان الدين كان أسلوبه فيها أسلوب المتقرب النادم، وهي استراتيجية من استراتيجيات الخطاب التواصلي التضامني ([80]) إذ يذكره فيها أيضاً بقوله: **((يا محل الولد))** ([81])، ونلاحظ أيضاً أن ابن خلدون يسميه (والدي) و (سيدي) في حين أن لسان الدين ايضاً يذكره بالمقابل بـ (سيدي)، و (محل ولدي)، وفي رسائل أخرى نجد ابن الخطيب يصفه بقوله: **((يا سيدي إجلالاً واعتداداً، وأخي**

---

74 ينظر: المساجلات الشعرية في الروضة الأندلسية: أ.د. ابتسام مرهون الصفار، مجلة الأندلس، الجزائر، مج6، ع24، 1442هـ- م2020، 244.

75 رحلة ابن خلدون، 113.

76 م.ن، 107.

77 م.ن، 104.

78 الإحاطة في أخبار غرناطة، 4/520-521.

79 استراتيجيات الخطاب-مقاربة لغوية تداولية، 264.

80 ينظر: م.ن، 305-308.

81 رحلة ابن خلدون، 103.

ودّاً واعتقاداً، ومحل ولدي شفقةً سكنت مني إليك)) ([82]). فيرد ابن خلدون على رسالته بما ذكرناه آنفاً: ((سيدي مجداً وعلواً، وواحدي ذخراً مرجواً، ومحلّ والدي بِرّاً وحنواً))، وكأنهما يريدان بذلك محو الفروق التراتبية بينهما وتعزيز الأواصر التواصلية، ويعد هذا الأسلوب استراتيجية من استراتيجيات التخاطب والتواصل التي تؤدي إلى التودد بين طرفي الخطاب ويقود إلى صداقة حقيقية([83]).

فالمساجلات الأدبية تعد ضرباً من التواصل الادبي وهذه المخاطبات المتبادلة بين ابن خلدون ولسان الدين لا تعد من (المراجعات) فقط وهي ((ما يتطلب الرد والاجابة التقليدية العادية التي تقتضيها أصول المبادلات الاجتماعية بين الناس)) [84]، وانما هي لتزويقها الأدبي ما يمكن أن نجعله ضمن طائفة (المعارضات) وهي ((التي يحسن وقعها عند من يطلع عليها، ويجد في نفسه من الاكبار لها، والاعجاب بها ما يدفعه الى ترسم خطاها، والنسج على منوالها، وصياغة نموذج على منوالها)) [85]. إذ تبدأ بذكر الألقاب وتلحقها ذكر الأشواق، وبعدها وبخاصة ما يتعلق بتلك المساجلات التي تلت رحيل ابن خلدون عن الأندلس نجدها توثق الأحداث السياسية للبلدان التي يعيشان بها وما حولها والمستجدات فيها وما قد وصل كليهما من أخبار بلدان غيرها، إذ نجد مثلاً ابن خلدون في رسالته هذه يتطرق الى الأحداث في تلمسان وتغير السلطان وما جر عليه من اعتقال أخيه والعبث في المنزل والولد واغتصاب الضياع، ثم ينتقل الى أخبار المغرب فيقول **((وأما أخبار المغرب الأقصى والأدنى فليدكم طِلعُه))** ([86]) ثم يعود الى أخبار المشرق فيذكر أخبار الحَجّاج وفساد المصانع والسقايات وما يسخن العين، وينتقل الى أخبار القاهرة فيذكر أن الأصوات فيها مزعجة لما فيها من ثورات ونزاعات.

كما نجد ابن خلدون يتطرق الى ما ذكره لسان الدين في مراسلته له من التصانيف التي ألفها وكيف أنه قد ندم على عدم جلبها ونشرها فيقول: **((وانبأني سيدي عما صدر عنه من التصانيف... وبودي لو وقع الإتحاف بها فلقد عاودني الندم على ما فرّطت))** [87].

ونجد أن ابن خلدون يستخدم العبارات ذاتها للسان الدين في مجاوباته على رسائله مثل عبارة **((وإن تشوقت السيادة الكريمة الى الحال...))** [88] وذلك حين البدء بالكلام عن أخبارهما الشخصية، فنجد لسان الدين يقول حين البدء بالحديث عن نفسه **((وان تشوقت لحال المحب تلك السيادة الفذة والنبوة البرة...))** [89]، وهذا ما يدعى في استراتيجيات الخطاب بالمصانعة، وهي ((من الآليات التي يجسد بها المُرسِل الاستراتيجية التضامنية، ونعني بهذه الآلية العمل على منوال عمل المرسِل في اللغة، وليس الموافقة في الرأي)) ([90]).

ثم يبدي ابن خلدون الرغبة في عدم انقطاع التواصل بينهما، وينهي الرسالة باسم المرسِل والسلام بقوله: **((من**

---

82 م.ن،108.

83 ينظر: استراتيجيات الخطاب –مقاربة لغوية تداولية، 97-103

84 النثر الادبي الأندلسي في القرن الخامس مضامينه واشكاله: علي بن محمد، ج531/2.

85 م.ن، ج531/2.

86 رحلة ابن خلدون، 115.

87 م.ن ، 115.

88 م.ن ، 115.

89 م.ن، 108.

90 استراتيجيات الخطاب–مقاربة لغوية تداولية، 312.

المُحبّ فيكم، المعتَد بكم شيعة فضلكم ابن خلدون، ورحمة الله وبركاته)) [91]، ثم يليها عنوان المرسَل إليه بقوله: **((عنوانه: سيّدي وعمادي، ورب الصنائع والأيادي، والفضائل الكريمة الخواتم والمبادي، إمام الأمة، علم الأئمة، تاج الملة، فخر العلماء الجِلّة، عماد الإسلام، مصطفى الملوك الكرام، نكتة الدول، كافل الإمامة، تاج الدول، أثير الله، ولي أمير المسلمين الغني بالله- أيده الله- الوزير أبو عبدالله بن الخطيب، أبقاه الله وتولى عن المسلمين جزاءه))** [92]، فنجده يطيل في الألقاب مجاراةً للسان الدين ايضاً.

ونجده في غيرها يوثق تاريخ الإرسال باليوم والشهر والسنة مثل قوله في نهاية رسالة أخرى للسان الدين **((والسلام الكريم يخصكم من المحب الشاكر الداعي الشائق شيعة فضلكم: عبد الرحمن بن خلدون ورحمة الله وبركاته في يوم الفطر عام اثنين وسبعين وسبع مائة))** [93].

وهناك رسائل أخرى بين لسان الدين وابن خلدون لو يوردها ابن خلدون في هذا الكتاب لأنه كما علل بأنه قد أطال فيها، ولكن نجد أن لسان الدين قد أثبتها [94].

هذا فضلاً عن الرسائل بينهما التي لم يذكرها أو يتذكرها ابن خلدون صدقاً او عمداً مصرحاً بذلك [95].

فضلاً عن هذا نجد أن ابن خلدون يوثق الرسائل تلك وما يتعلق بها بطريقة مميزة؛ مثال ذلك ما أرفقه لسان الدين في إحدى رسائله الى ابن خلدون من نص ما كتبه الى السلطان ابن الأحمر بعد فراره منه بتلمسان، فيقول ابن خلدون: ((وكان بعث إلي مع كتابه نسخة كتابه الى سلطانه ابن الأحمر صاحب الأندلس، عندما دخل جبل الفتح وصار الى إيالة بني مرين، فخاطبه من هنالك بهذا الكتاب)) [96]. ويجد ابن خلدون أن توثيقه هنا مع ما يتضمنه من أبيات شعرية لا يمت بصلة لكتاب (رحلة ابن خلدون) الذي ضمنه التعريف بنفسه، ولكنه يعتذر من ذلك بقوله: ((فرأيتُ أن أثبته هنا وإن لم يكن من غرض التأليف لغربته، ونهايته في الجودة، وإنّ مثله لاُ يهمَل من مثل هذا الكتاب، مع ما فيه من زيادة الاطلاع على أخبار الدول في تفاصيل أحوالها)) [97].

ومن خلال هذه النصوص النثرية التواصلية بين ابن خلدون ولسان الدين بن الخطيب وغيرها وقفنا عند أساليب المراسلات واصول النصوص النثرية لتلك الفترة كما استطعنا تمييز أسلوب ابن خلدون المميز عن أسلوب ابن الخطيب وغيره من أدباء عصره.

وقد تواصل ابن خلدون أيضاً برسائل نثرية وشعرية مع ابن زمرك([98])، لكنه لم يثبت منهما إلا رسالة واحدة لابن زمرك يصطلح عليها اسم (كتاب) يمزج فيها بين الشعر والنثر تربو على الثمان صفحات، يبدؤها بالشعر ثم

---

91 رحلة ابن خلدون، 116.

92 م.ن، 116.

93 م.ن، 129.

94 ينظر على سبيل المثال: الإحاطة في اخبار غرناطة، ج523/4.

95 ينظر: رحلة ابن خلدون، 124.

96 ينظر: م.ن، 129.

97 م.ن ، 129.

98 هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد الصريحي المعروف بابن زمرك ت797هـ عاش ودرس في غرناطة على يد ابن الخطيب وعمل في كتابة السر في كنفه، إلا أنه جحد أستاذه وسعى به حتى نكب وقتل خنقًا، ثم أصبح وزيرًا للسلطان محمد الخامس الغني بالله، ولكنه لم يلبث أن نكب بسبب طغيانه وتآمروا عليه جماعة وقتلوه في منزله مع أبنائه وخدمه. ينظر: نفح الطيب،145/7-161 .

يصلها بقوله: ((**سيدي علم الأعلام، كبير رؤساء الإسلام، مشرف حملة السيوف والأقلام، جمال الخواص والظهراء، أثير الدول، خالصة الملوك، مجتبى الخلفاء، نيّر أفق العلاء، أوحد الفضلاء، قدوة العلماء، حجة البلغاء...**))([99])، ويظهر في هذا الخطاب الإعلاء من شأن ابن خلدون باختيار ابن زمرك في حواره معه الألقاب الدالة على مكانته الوظيفية والاجتماعية مقرونة بأسماء التفضيل التي تدل على إعلاء شأنه ومكانته بين سياسيي عصره، فضلاً عن الإلحاح في التوازيات الترادفية للمعنى ذاته، فهو علم الأعلام، وكبير رؤساء الإسلام...الخ، ولا يخفى ما تقتضيه هذه الألقاب والإلحاح في ذكرها المقترن بتنغيم مناسب للسياق والمعنى والقصد المراد من دليل على قصدية ابن زمرك في توثيق العلاقة التضامنية مع ابن خلدون وكسب وده ([100])، ثم يسترسل بدعاء طويل لابن خلدون، وبالتحيات له، فضلاً عن شيء من العتاب في عدم مراسلة ابن خلدون له، وبعض الأخبار السياسية، ثم ذكر ضمنها فصلاً يطلب فيه كتبًا من مصر، وينهيها ابن خلدون بقوله:((وفي الكتاب فصول أخرى في أغراضٍ متعددة لا حاجة إلى ذكرها هنا، ثم ختم الكتاب بالسلام، وكتب اسمه: محمد بن يوسف بن زَمْرَك الصريحي، وتاريخه العشرون من محرّم تسع وثمانين)) ([101])، فأثبت ابن خلدون بهذه الخاتمة ما كان من أساليب متداولة في ختام الخطابات المرسلة بالسلام وذكر اسم المرسِل وتاريخ الإرسال، وفي هذا بيان بأن ابن زمرك لم يحد عن النمط المتعارف عليه .

وكذلك أثبت ابن خلدون في تواصله الأدبي مع أهل الأندلس بعد رحيله عنها نصاً واحداً فقط لقاضي الجماعة بغرناطة أبي الحسن البِنّي النباهي (ت بعد 793هـ) ([102])، يبدؤه بأسطر نثرية يقول فيها: ((**الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله. يا سيدي وواحدي ودًا وحبًّا، ونجيّ الروح بُعدًا وقربًا، أبقاكم الله وثوبُ سيادتكم سابغ، وقمر سعادتكم- كلما أفِلَت الأقمار- بازغ، أسلّم بأتم السلام عليكم، وأقرر بعض ما لدي من الأشواق إليكم، من حضرة غرناطة -مهدها الله-، من ذكرٍ لكم يتضوّع طيبه، وشكر لا يذوي- وإن طال الزمان- رطيبه..**))[103]، فيدعو له ويبثه أشواقه من غرناطة التي مازالت تذكر أفضاله، وبعدها يذكر حادثة تنحيه عن خطة القضاء، ثم يرفق رأيه بأبيات شعرية له ولغيره، بعدها يشير إلى كتاب كان ابن خلدون قد بعثه له رغم أنه لم يوثقه ولم نجده في هذا الكتاب يدعو أهل الأندلس فيه إلى الدعاء للسلطان، إذ يقول القاضي النباهي((**إيه سيدي رضي الله عنكم وأرضاكم، وأطنبتم في كتابكم في الثناء على السلطان، الذي أنعم بالإبقاء، والمساعدة على الانفصال عن خطة القضاء، واستوهبتم الدعاء له ممن هنا من الأولياء، ، ولله دركم في التنبيه على الإرشاد إلى ذلكم، فالدعاء له من الواجب، إذ فيه استقامة الأمور، وصلاح الخاصة والجمهور، وعند ذلك ارتفعت أصوات العلماء والصلحاء بهذا القطر له ولكم بجميل الدعاء، ...ولما وقف على مكتوبكم إلي مولانا السلطان أبو عبد الله أطال الثناء على مقاصدكم، وتحقق صحيح ودادكم، وجميل اعتقادكم، وعمّر مجلسه**

---

99 رحلة ابن خلدون،214.

100 ينظر: استراتيجية الخطاب-مقاربة لغوية تداولية، 275.

101 ينظر: رحلة ابن خلدون ، 218.

102 هو المعروف بأبي الحسن وبالبني والشهير بالقاضي النباهي المالقي، قاضي الجماعة بغرناطة، له كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا والقاضي البني لم يذكر إلا وذكر معه لسان الدين بن الخطيب، فقد بدآ صديقين ثم اشتد بينهما الخلاف فتهاجيا. ينظر: نفح الطيب، 6/5،119/119؛ وينظر: أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان : لأبي الوليد بن الأحمر الغرناطي الأندلسي، تح: د. محمد رضوان الداية، 170.

103 رحلة ابن خلدون، 219.

يومئذٍ بالثناء عليكم، والشكر لما لديكم))([104])، فأثبت القاضي النباهي في هذا الكلام إعجابه باستراتيجية الخطاب لابن خلدون بدعائه للسلطان وما فيه من مقاصد تعلي من شأن البلاد، وبيّن أنه هو من ابتدع هذا النمط من الخطاب وأرشد ونبه إليه لما فيه من توطيد واجتماع لكلمة أبناء البلد الواحد الذي يصلح بصلاح قائده، وهي نظرية اجتماعية يقرها ابن خلدون ويحث إليها .

ثم يثبت ابن خلدون انتهاء كلامه بقوله((**ثم ختم الكتاب بالسلام من كاتبه علي بن عبد الله بن الحسن مؤرخًا بصَفَر تسعين، وفي طيّه مدرجة بخطه (وقد قصر فيها عن الإجادة))**([105]) مدرجًا كلامه الذي يعتذر في أوله عن كتابته بغير خطه بسبب مرض بعينه، ثم ينهيه ابن خلدون بقوله((**هذا ما وسع الوقت من الكلام ، ثم دعا، وختم))**([106])، مما يشير إلى امتعاضه من هذا القاضي وعدم رضا نفسه عنه رغم تودده وتأكيده على التواصل معه، لكن يبدو أن موقفه من لسان الدين وخذلانه له هو الذي أدى إلى عدم اهتمام ابن خلدون له ولكتاباته وذمها، حتى أنه يعلل ذكرها بأنها لغرض توثيقها لتؤرّخ فقط لا إعجابًا بها([107]).

ثانياً: النصوص الشعرية في رحلة ابن خلدون الى الأندلس:

تخلل كتاب (رحلة ابن خلدون) أو المسمى بـ (التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً) عدة قصائد ومقطوعات شعرية، كان أكثرها لغير ابن خلدون ممن ذكرهم من السلاطين والعلماء الذين يوثق أخبارهم وهم غالبًا ممن قابلهم أثناء رحلاته، ولكن مما هو جدير بذكره في هذه الدراسة أن أغلب الأبيات الشعرية التي من نظم ابن خلدون نفسه كانت ضمن ذكره لرحلته الى الأندلس.

وقد أشار ابن خلدون في سيرته الذاتية ضمن هذا الكتاب أنه قد بدأ بنظم الشعر في فاس بين سنة (760-762هـ) أي كان عمره آنذاك حوالي الثلاثين عاماً مؤرخاً لذلك بقوله: ((ثم أخذتْ نفسي بالشعر، فانثال عليّ منه بحور)) ([108]).

أي قبل وصوله الى الأندلس بسنتين، ولم يذكر في سرد سيرته لتلك الفترة السابقة لرحلته إلى الأندلس إلا قصيدتين في المولد النبوي ومدح سلطان فاس آنذاك، وقصيدة في عيد الفطر، وقد أشار الى أنه قد أنشد غيرهما لكنه لم يحضره منها شيء ([109]).

ولم نجد له بعد رحلته عن الأندلس إلا أبياتًا خمسة في عيد الفطر ومدح السلطان أبي حمو صاحب تلمسان سنة 771هـ، يقول في التقديم لها: ((وهي طويلة، ولم يبق في حفظي منها إلا هذا)) ([110]).

وقد اعترف ابن خلدون بابتعاده عن الشعر فيما بعد وإهماله مما أثار أعداءه ومنافسيه وكان حجة لهم في إثارة الفتنة بينه وبين سلطان تونس أبي العباس لأنه لم يمتدحه، فكتب أبياتاً يعتذر فيها له عن نظم الشعر ويستعطفه

---

104 م.ن،220.
105 م.ن، 220.
106 م.ن، 220.
107 م.ن، 221.
108 م.ن ، 75.
109 ينظر: م.ن ، 75-84.
110 م.ن ، 120.

بإهدائه كتابه في التاريخ بقوله: ((فإني كنت قد أهملت الشعر وانتحاله جُملةً، وتفرّغتُ للعلم فقط)) [111]، فوثّق قصيدتين فيه إحداهما في اعتذاره عن نظم الشعر لانشغاله بالكتاب والأخرى في مرضه [112].

كما نجد أن له قصيدة أخرى في الاعتذار الى أحد السلاطين عن إكراهه وغيره من الفقهاء لكتابة فتاوى[113].

أما في رحلته إلى الأندلس فقد وجدنا أنه يلح على ذكر التواصل الأدبي بينه وبين الأندلسيين من خلال الشعر وكالآتي:

النصوص الشعرية الممهدة لرحلة ابن خلدون الى الأندلس:

أول ما يطالعنا من هذه النصوص الشعرية أربعة أبيات يلحقها نص نثري يرحّب بها لسان الدين بن الخطيب بابن خلدون، أو كما يذكر ابن خلدون مناسبتها ((يهنّئني بالقدوم ويؤنسني)) ([114]) يقول فيها:

حللتَ حلول الغيثِ بالبلدِ المــحلِ على الطائر الميمونِ والرّحبِ والســـهلِ
يمينًا بمن تعنو الوجوه لوَجـــهه من الشيخِ والطفلِ المُهَدَّإِ والكـــــهلِ
لقد نشَأتْ عندي للقياكَ غِبـــطةٌ تُنَسّي اغتباطي بالشبيـــــــبةِ والأهلِ
وودّي لا يُحتاجُ فيهِ لشـــــــاهدٍ وتقريري المعلوم ضربٌ من الجـــهلِ

فقد بين ابن خلدون قبل ذكر الأبيات مقصدية لسان الدين منها في أنه (يهنئني بالقدوم) إلى الأندلس و(يؤنسني)، وهو الذي التجأ إلى الأندلس بعد أن ضاق من وجوده بفاس، فكان بحاجة إلى مثل هذا الترحيب لتطمئن نفسه، وهو يعد من التواصل التراسلي([115])؛ إذ جاء رداً مطمئناً على استئذان ابن خلدون بالقدوم إلى الأندلس، فيرحب لسان الدين بابن خلدون في هذه الأبيات معبّراً فيها عن فرحه واغتباطه بقرب لقائه، مشبهًا إياه بالغيث الذي سقى البلاد بعد طول الجفاف، ومشبهًا السفينة التي أقلّته بالطائر الميمون تفاؤلاً بمجيئها من جهة اليمين، وقد سماها ابن خلدون (الحراقة) ([116]).

ثم يبدأ البيت الثاني بلفظة(**يميناً**) التي نجد فيها تورية بين مقصدية القسم في هذا الموضع وبين ذكر جهة اليمين والتبرّك بها كما تقدم من ذكره (**الطائر الميمون**)، لكن ابن الخطيب يزيل اللبس بالمقصدية من خلال ابرازه مقصدية القسم التي وارى المقسوم به حقيقة ليبهر المتلقي بعظمة الله في ذكره صفة من صفاته العظيمة التي هي السجود لوجهه الكريم بقوله (**يميناً بمن تعنو الوجوه لوجهه....**).

ونجد في هذه الأبيات تضمينًا عروضيًا إذ لم يكتمل معنى البيت السابق الذي أسهب فيه ابن الخطيب بالقسم إلا في البيت الذي تلاه (**لقد نشأت عندي للقياكَ غِبطة تنسّي اغتباطي بالشبيبة والأهل**)، ثم يحس بمبالغته في القسم

111 م.ن ، 190.
112 ينظر: م.ن ، 190-198.
113 ينظر: م.ن ، 259-263.
114 م.ن ،84.
115 ينظر: في التداولية المعاصرة والتواصل: أ.مولز-ك.زيلتمان-ك.أوريكيوني، ترجمة وتعليق: د. محمد نظيف، 61.
116 ينظر: رحلة ابن خلدون، 84.

فيعترف بذلك في قوله في البيت الأخير:

وودي لا يحتاج فيه لشاهد وتقريري المعلوم ضربٌ من الجهلِ)

فلسان الدين في هذه الأبيات يوظف الكثير من الاستراتيجيات التضامنية التواصلية تعبيراً لابن خلدون عن مدى فرحه بقدومه إلى الأندلس استقطابًا وتطمينًا له بصحة قراره في اختيار الأندلس دون غيرها محطة له، إذ يعد عبد الهادي الشهري أول مسوغ من مسوغات الاستراتيجية التضامنية((تأسيس الصداقة بين طرفي الخطاب، أو إعادتها بين طرفين فرّق بينهما الزمن فابتعدا كثيراً عن بعضهما البعض)) ([117])، فاستخدم لسان الدين ابن الخطيب التواصل الأدبي من شعر ونثر مع ابن خلدون إرضاء لذائقته المعجبة بأدب لسان الدين، وألح على التعبير عن فرحه بقرب لقياه بتوظيفه القسم الثقيل والمؤكد لذلك، فضلاً عن تفضيل لقياه على لقاء الأهل ورجوع الشباب، وكذلك تأكيده على التنغيم في هذه الأبيات الموحي بطرب روحه وبهجتها بلقاء ابن خلدون والمتأتي من استخدام البحر الطويل الذي أعطى بطول تفعيلاته الفرصة للسان الدين بالتعبير عن مكنونات نفسه المبتهجة، وما يدعم ذلك التنغيم من وجود التكرارات المتأتية من الجناس كما في (حللت، حلول، المحل)، و(غبطة واغتباطي)، فضلاً عن التصريع الموافق للقافية والمنبئ عنها، وتوالي المعطوفات المتوازي بين الشطرين الأول والثاني وجزء من الثالث في قوله:

الطائر الميمون والرحبِ والسهلِ

من الشيخ والطفل المُهدَّإ والكَهلِ

تُنسّي اغتباطي بالشبيبة والأهلِ

وكل ذلك يعد نوعاً من استراتيجيات الخطاب التضامني التي تقرّب المتلقي وتحببه بالمرسِل ([118])، وهو مبتغى لسان الدين.

النصوص الشعرية التواصلية أثناء إقامة ابن خلدون في الأندلس:

يذكر ابن خلدون وصوله الى الأندلس بقوله: ((ثم أصبحتُ من الغد قادمًا على البلد)) ([119]) ويؤرخ لذلك بقوله: ((وذلك ثامن ربيع الأول عام أربعة وستين)) ([120])، وهنا يظهر نفَس ابن خلدون المؤرخ.

ومن النصوص الشعرية التي أثبتها ابن خلدون في أثناء إقامته بالأندلس مجتزءات من قصيدة طويلة قالها في المولد النبوي مثبتًا تاريخها بقوله: ((حضرت المولد النبوي لخامسة قدومي))([121]) ، أي في السنة الخامسة لقدومه الى الأندلس بمعنى سنة(769هـ) مبينًا العادات في احتفال الأندلس بهذه المناسبة، من حيث (الدَّعوة) أي استدعاء الناس للطعام، وإنشاد الشعراء، معللاً هذه العادات بأنها((اقتداءً بملوك المغرب))([122])، ومن الجدير بالذكر أن هذه المناسبة لم تأخذ صفتها الرسمية في الأندلس إلا في منتصف القرن السابع الهجري على يد حاكم سبتة حيث كانت

117 استراتيجيات الخطاب– مقاربة لغوية تداولية، 261.

118 ينظر: م.ن، 321.

119 رحلة ابن خلدون ،85.

120 م.ن، 85

121 م.ن،86.

122 م.ن ،86.

قبل ذلك تحمل صفة اجتماعية([123])، أي أنها في عصر ابن خلدون كانت قد اتخذت صفتها الرسمية، فتقدم إلى السلطان ابن الأحمر بأبيات شعرية وثّق من مقدمتها وصولاً الى غرضه الأساس خمسة عشر بيتًا يبدؤها بالوقوف على الأطلال بقوله([124]):

حيّ المعاهد كانت قبل تحييني بواكف الدمعِ يرويها ويظميني

ويُظهر فيه حنينه الى زيارة نجد وقبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله ([125]):

يا أهل نجدٍ وما نجدٌ وساكنها حُسنًا سوى جنّة الفردوس والعِينِ

ويقصد بـ(العِين) الحور العين، وهذا ما يتناسب مع الموضوع الأساس وهو ما أشاد به النقاد القدماء في نظم مقدمات القصائد وسموه بحسن الاستهلال وبراعته ([126])، وإنما يثار ذلك الشوق لما يلقاه المغاربة والأندلسيون من معاناة في رحلتهم إلى الديار المقدسة لبعد المسافة، وكان من العرف المعتاد في قصائد المولديات الأندلسية وذكر الديار الحجازية والديار التي تقع في طريق الحج ([127]).

ثم ينتقل الى المديح السياسي متخذًا من وصف الإيوان الذي بناه ابن الأحمر لجلوسه بين قصوره وسيلة لذلك المدح بقوله ([128]):

يا مَصنعًا شَيَّدت منه السعود حِمى لا يطرق الدهرُ مبناه بتوهيـــــنِ

صرحٌ يَحـــــار لديهِ الطّرفُ مُفتننًا فيما يروقكَ من شكلٍ وتلويـــــنِ

بُعدًا لإيوانِ كِسرى إن مشـــورك السامي لأعظم من تلكَ الأواويـــــن ([129])

وَدَع دِمشقَ ومغناها فقصرُكَ ذا وأشهى إلى القلبِ من أبوابِ جيرونِ

وهذا الانتقال من المديح النبوي الى المديح السياسي أيضاً من سمات قصائد المولد النبوي الأندلسية ([130])، ولا يخفى ما لهذا التناص مع ما هو مألوف في هذا الموضوع وتدرجاته في قصائد المولديات الأندلسية من غاية في نفس ابن خلدون لتقوية أواصر التواصل مع الأندلسيين، إذ يعد التناص آلية من آليات التواصل الأدبي معتمدًا أفق التوقع السائد للمتلقي([131])، وكانت الموالد النبوية في الأندلس تقام في قصور السلاطين وتزداد شعبيتهم في هذا اليوم ويرتقي شأنهم ليكون مديحهم بعد مديح النبي صلى الله عليه وسلم، ونلاحظ أن ابن خلدون قد أعلى من شأن قصر ابن

---

123 دراسات حضارية في التاريخ الأندلسي: د. محمد بشير حسن راضي العامري، 15.

124 رحلة ابن خلدون 86.

125 م.ن 87.

126 ينظر: معجم البلاغة العربية: د. بدوي طبانة،77/1.

127 ينظر: بنية قصيدة المولد النبوي في الأندلس والمغرب حتى القرن التاسع الهجري: د. عبد الحليم حسين المهروط، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ع82، س2012م، 225.

128 رحلة ابن خلدون ،87.

129 وقد ورد في موقع ويكيبيديا أن المشور مصطلح تاريخي يستعمل في المغرب العربي لوصف الموقع الجامع للقصر الملكي أو قصر الضيافة أو قصر العدالة، وأصل التسمية من المشورة لأنه يدل على مكان المشاورة بين السلطان وحاشيته فأخذ المصطلح من المعنى.

130 ينظر: بنية قصيدة المولد النبوي في الأندلس والمغرب حتى القرن التاسع الهجري: د. عبد الحليم حسين المهروط ، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، ع82 ،س2012م ،254.

131 ينظر: لسانيات النص نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري،73.

الأحمر من خلال تفضيله على إيوان كسرى ويسميه (المشور) وهو المكان الذي يجلس فيه السلطان وغيره من الحكام للحكم وماتزال هذه الكلمة تستخدم بهذا المعنى في المغرب([132])، فتوظيفه لهذه المفردة يتوافق مع ثقافة المكان (الأندلس)، ((فتداول فكرة أو عبارة ما في أي مجتمع لا تتم إلا بعد وجود تواصل بين أفراد هذا المجتمع، واتفاقهم على فهمٍ معيّن لهذه الفكرة أو العبارة)) ([133])، كما فضّل قصر ابن الأحمر هذا على مغاني دمشق ومتنزهاتها وبواباتها، وفي هذا إعلاء من شأن الممدوح ومكانته وبخاصة إذا علمنا مكانة دمشق في نفس ابن خلدون الذي عدّها في مقدمته من الإقليم الرابع وصنّفه على أنه أفضل الأقاليم([134]).

ثم عرّج ابن خلدون في هذه القصيدة على المقارنة بين معاملة الوزير عمر بن عبد الله في عُدوة المغرب له والتي أدت إلى رحيله عنها وبين ما لاقاه من حفاوة حكام الأندلس بقوله ([135]):

من مبلغ عنّي الصحب الألى تَركوا ودّي وضاع حماهم إذ أضاعوني
أني آويتُ من العليـــــا إلى حرمٍ كادت مَغانيه بالبشرى تُحيـــيني
وأنني ظـــــــاعناً لم ألقَ بعدهمُ دهرًا أشاكي ولا خصمًا يشاكاني

فابن خلدون رغم ضيقه ممن انقلبوا عليه في العدوة إلا أنه مازال يصفهم بـ (الصحب)، ويصف مكانهم بـ(العليا) وهذا ما عهدناه من استراتيجيات الخطاب التضامني لابن خلدون وسياسته في التعامل حتى مع من يعاديه.

ونجد في النص انسجاماً لسانياً متأتياً من الاتساق بالتكرار الذي عده اللسانيون من أدوات الربط التي هي من وجهة نظر التداولية الخطابية مسؤولة عن انتظام أجزاء الخطاب ([136])، وتكرار حروف المد واضحاً في هذه الأبيات إذ بلغ(تسعة وعشرين) حرفاً في أربعة أبيات مما أدى إلى تنغيمها الحزين المعبّر عن حسرات ابن خلدون، فضلاً عن توظيفه لجناس الاشتقاق بين (ضاع وأضاعوني) و(أشاكي ويشاكيني)، وهو نوع من الاستلزام الحواري والهندسة الصوتية المؤثرة في المتلقي([137]) يحاول ابن خلدون من خلالها استعطاف ابن الأحمر وتقوية الصلة معه.

إذ أثبت منها اثني عشر بيتاً اختتمها بالفخر بشعره وما فيه من إعلاءٍ لشأنِ السلطان، ثم بالدعاء للسلطان ابن الأحمر.

ومما يؤخذ على ابن خلدون في هذه القصيدة أنه لم يثبت فيما وثّقه منها تطرّقه إلى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلّم) ولا ذكر صفاته وأعماله كاسراً أفق توقع المتلقي، إذ كان جل اهتمامه منصبًّا على ما يوطّد علاقته بالسلطان وذكر عادات وتقاليد الأندلسيين في هذه المناسبة، وهذا هو دأب الرّحالة الأنثوجرافي في وصف وتحليل الثقافات الموجودة في البلد الذي رحل إليه ([138])،

كما وثّق ابن خلدون مراسيم الاحتفال بمناسبة أخرى أثناء إقامته في الأندلس ألا وهي إعذار(ختان) ولد السلطان

132 ينظر: رحلة ابن خلدون،87 هامش5 .
133 لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة: د. عبد الفتاح أحمد يوسف، 48.
134 ينظر: مقدمة ابن خلدون، 81، 99.
135 رحلة ابن خلدون،87.
136 ينظر: الخطاب الأدبي ورهانات التأويل–قراءات نصية تداولية حجاجية: أ.د. نعمان بوقرة،36.
137 ينظر: لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة: 128–129.
138 ينظر: أدب الرحلات، 70.

ابن الأحمر في ثلاثة عشر بيتاً غير متتالية، يقول في التقديم لها: ((لم يحضرني منها إلا ما أذكره)) ([139])، وهذا يدل على بعد فترة توثيق النص عن زمن إلقائه، فذكر منها سبعة أبيات في الطلل وذكر طيف الحبيب ناهجاً منهج المشارقة القدامى في قصائد المديح، ومستعطفاً الممدوح ليحثه على استدعاء عائلته من قسنطينة الى الأندلس، يقول في مطلعها ([140]):

صحا الشوقُ لولا عَبرةٌ ونَحيبُ وذكرى تُجِدُّ الوَجدَ حين تَثـوبُ

وقَلبٌ أبى إلا الوفاءَ بعهـــــدِهِ وإن نَزَحَتْ دارٌ وبـــانَ حبيبُ

ثم يذكر ثلاثة أبيات بعدها يصف فيها شجاعة ابن السلطان في تقدمه للإعذار دون خوفٍ أو وَجل، ويلحقها بثلاثة أبياتٍ في الثناءِ على كلا ولديه وعليه بقولهِ ([141]):

هما النيّـــــرانِ الطالعانِ على الهدى بآياتِ فتحٍ شأنهنّ عجيـــــبُ

شِهابانِ في الهَيجا غمامانِ في الندى تسحُّ المَعالي منهما وتَصـــوبُ

يَدانِ تبسطُ المكرُمـــاتِ نَمـــــاهُما إلى المَجدِ فَيّاض اليَدينِ وَهـوبُ

فيؤكد ابن خلدون في هذه الأبيات على المضامين المدحية المألوفة مبتدئاً فيها بما يهتم به من إثبات حسن إسلامهما وهداية الله لهما، ثم التنبؤ بشجاعتهما في الفتوحات وبفيض كرمهما الذي يستمدانه من والدهما، فجمع في البيت الأخير بين مدحهما ومدح والدهما السلطان ابن الأحمر.

وفي تأكيده على الكرم في آخر بيت يقتضي إكرامه من الممدوح ورفده وهو استراتيجية تلميحية في الخطاب ([142])، وإن ذكر ذلك في آخر بيت يبقى في ذاكرة الممدوح ويستحثه على الإكرام المباشر للشاعر.

كما يشير ابن خلدون الى نظمه لقصيدة أخرى في المولد النبوي أثناء مكوثه في بلاد الأندلس، أي لعام 765هـ، أثبت منها سبعة عشر بيتاً، ابتدأها بذكر طيف الخيال في سبعة أبيات أولها ([143]):

أبـــى الطيـــفُ أن يعتـــاد إلا توهّمـــا فَمَـــن لـــي بـــأن ألقـــى الخيـــالَ المسَـــلَّما

يشير فيها الى اعتياده على رؤية طيف أعجب بخيالاته وإن كان يعلم بكذبه لكنه كان يعلله بتحقيق الأماني في قوله ([144]):

ولكـــــن خيـــــال كـــــاذب وطماعـــــةٌ تعلـــــك قلبـــــاً بالأمـــــاني مُتيَّمـــــاً

وحينما نطلع على ما يلي هذه الابيات نعلم ما تقتضيه من تلميح لابن خلدون؛ إذ يشير من خلالها بحنينه الى أهله الذين تركهم بقسنطينة ويستعطف السلطان ابن الأحمر بها للسماح بحضورهم.

كما نجده في هذه الأبيات الطللية يشير الى طللين في الوقت ذاته، طلل بلاده التي فارقها ويحن إلى ذكرياته فيها،

139 رحلة ابن خلدون، 88.

140 م.ن، 88.

141 م.ن، 89.

142 ينظر: استراتيجيات الخطاب–مقاربة لغوية تداولية، 367–443.

143 رحلة ابن خلدون، 89.

144 م.ن، 89.

ويتضح ذلك بخاصة في قوله [145]:

وذو الشـــوق يعتـــاد الربـــوع دوارســـاً ويعـــرِف آثـــارَ الـــديارِ توهّمـــا

أجـــد لـــي العهـــد القـــديم كأنـــه أشـــار بتـــذكارِ العهـــودِ فأفهمـــا

ثم يدمج ذكراه لهذه الأطلال بذكر أطلال مكة والمدينة وتشوقّه إليها والحنين لزيارتها، وهي ما يتوافق مع غرض القصيدة ومناسبتها بذكرى المولد النبوي في قوله [146]:

وصـــافحته عـــن رســـم دارٍ بـــذي الغَضـــى لبســـتُ بهـــا ثـــوبَ الشـــبيبةِ مُعْلمـــا

لَعَهـــدي بهـــا تُـــدني الظبـــاءَ أوانِسًـــا وتُطلِـــع فـــي آفاقِهـــا الغيـــدُ أنجُمـــا

أحِـــنُّ إليهـــا حيـــث ســـار بـــي الهـــوى وأنْجَـــدَ رحلـــي فـــي الـــبلاد وأتهَمـــا

فذكَر (ذي الغضى) وهو وادٍ بنجد، ثم ذكر ارتياد الناس الى هذه الأماكن من كل جنسٍ وصوب، ثم ذكَر حنينه إليها وتوق هواه لملقاها سواءً (أنجد) او (أتهما) أي دخل (نجداً) أو (تهامة) وهي الأماكن التي أكثر الشعراء المسلمون من ذكرها للدلالة على قدسيتها حتى عدّت (نجد) أكثر موضع ذكره الشعراء [147]، وكان أهل الأندلس كثيرو السفر للحج حتى سمي أحد أرباض غرناطة الخارجية بـ (حوز الوداع) حيث اعتاد الغرناطيون في هذا المكان توديع أهلهم راحلين الى المشرق [148].

فقد جمع في هذه الأبيات بين ثلاثة أماكن:

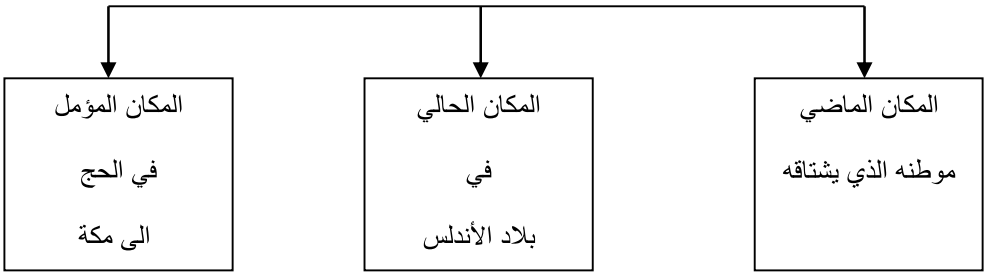

ويتأتى ذلك التقسيم من رؤية ابن خلدون المستطلعة لحياته ومسيرتها إذ يرسم الطريق ويحققه في هندسة تواصلية مع النسق الثقافي لنظم الشعر العربي مخططًا لها كما أثبتها في سيرته الذاتية هذه ليدمج النسق الثقافي مع النسق الشعري الخاص وهو من متطلبات الخطاب التداولي ليلقى صدًا وتقبلاً في نفوس المتلقين ([149]).

ونجد ابن خلدون في هذه الابيات بالذات من ضمن الأبيات التي وثقها في رحلته الى الأندلس يرسم الصورة الشعرية فيها بشتى الآليات المستمدة من واقع الأندلس من حيث طبيعة البلاد ومن حيث اهتمامها واهتمام الولاة

145 م.ن، 90.

146 م.ن ، 90.

147 ينظر: معجم البلدان: ياقوت الحموي، مج5/ 262.

148 ينظر: نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان: أبو الوليد الأمير بن الأحمر ت 807هـ ، تح: محمد رضوان الداية، 295.

149 ينظر: لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، 162-163.

فيها بالأدب، ويكفي ذكر الأبيات الآتية لتوضيح ذلك في قوله مصوراً حنينه الى الطللين الماضي والمؤمل [150]:

عَجِبْـــــتُ لِمُرتـــــاع الجـــــوانحِ خـــــافق بكيـــــتُ لـــــه خلـــــف الـــــدُّجى وتَبسّـــــما

وَبِـــــتُّ أُرَوّيـــــهِ كـــــؤوس مـــــدامعي وبـــــات يعـــــاطيني الحـــــديثَ عـــــن الحِمـــــى

وصـــــافحتُه عـــــن رســـــمِ دارٍ بـــــذي الغَضـــــى لبســـــت بهـــــا ثـــــوب الشـــــبيبة مُعلمـــــا

فقد دمج التعبير عن مكنونات النفس المتشوقة مع الطبيعة المتحركة إذ يقارن بين خفقان القلب المتشوق ولهفته وبين حركة البرق ولمعانه؛ فيشجيه التذكر وتبكيه الليالي في حين أن البرق يتألق ويلمع وسط الظلام وهو من التضاد الموحي بخفايا النفس وتأملاتها.

فهذه الصورة نفسية بصرية يسودها تضاد الألوان في ذكر الظلمة مع الضوء، والبكاء مع التبسم، وإن كان الجامع في كليهما الإيحاء بالحركة. تلحقها صورة ذوقية بذكر الإرواء من كأس المدامع، وصورة سمعية في تعاطي الحديث بينه وبين الرعد المرافق للبرق الذي يذكّره بالمكان الماضي أو المؤمل، فضلاً عن الصورة اللمسية من خلال قوله (وصافحته)، فكان ابن خلدون مُجيدًا فيها وهو بحق كما ذكره احمد حسن الزيات قد انتهت إليه زعامة العلم والأدب في افريقيا مقابل معاصره لسان الدين في الأندلس [151]، ولا يخفى ما تثيره مثل هذه الصور الشعرية من جذب للمتلقي وتواصل مع الإبداع التخيلي للشاعر.

التواصل الأدبي الشعري بعد رحيل ابن خلدون عن الأندلس:

يصرّح ابن خلدون بأنه بعد سنة 776هـ ابتعد عن الشعر واهتم بالعلم والتأليف، وذلك من خلال تعليله عدم امتداحه للسلطان في قلعة سلامة [152]، لذا لا نجد توثيقًا لشعره التواصلي مع الأندلسيين بعد رحيله عن الأندلس.

أما عن الأندلسيين المتواصلين مع ابن خلدون بعد مغادرته الأندلس فقد ضمنوا عددًا من رسائلهم أشعارًا وثقها ابن خلدون في كتابه (رحلة ابن خلدون)، منهم لسان الدين ابن الخصيب فقد ضمَّن رسائله التي كان يبعثها لابن خلدون بعد رحيله عن الأندلس أبياتاً شعرية في الشوق إليه غالباً [153]، أو التهنئة بمناسبة ما مثل تهنئته بولادة مولود له [154]، من ذلك بدؤه لرسالة في الشوق لابن خلدون والعتبِ على قلة تواصله معه بعد رحيله عن الأندلس يبدؤها باثني عشر بيتاً يقول في مطلعا ([155]):

بنفسي وما نفسي عليَّ بهينة فينزلنـــــي عنها المكاسُ بأثمـــــان

حبيبٌ نأى عنّي وصُمَّ لأنَّتي وراشَ سهامَ البَينِ عمدًا فأصماني

كما نجد من التواصل الأدبي الشعري المتعلق برحلته الى الأندلس وما نجم عنها من صلات وما كان من تواصل

150 رحلة ابن خلدون، 90.

151 ينظر: تاريخ الأدب العربي للمدارس الثانوية والعليا، 343؛ وينظر: الصيب والجهام: لابن الخطيب، 129.

152 ينظر: رحلة ابن خلدون، 190.

153 ينظر: م.ن، 99.

154 ينظر: المصدر نفسه، 174.

155 رحلة ابن خلدون، 99؛ المكاس: المماكسة والمشاحة في الثمن عند التبايع. راش السهم: ألصق به الريش، أصمى الصيد: رماه فقتله في مكانه.

له مع ابن زمرك وزير السلطان ابن الأحمر بعد فرار لسان الدين بن الخطيب من غرناطة، وقد تواصل مع ابن خلدون عن طريق الرسائل النثرية المتضمنة أبياتًا شعرية، منها ذكر ابن خلدون لحاجٍ أوصل له رسالة منه، ثم يذكر نص كتابه مبتدئاً بقصيدة من ستة وسبعين بيتاً، ثم يلحقها بنص نثري من اثنين وستين سطراً يبدؤها بالتشوق إلى الحج تناسبًا مع وجهة ابن خلدون إلى تأدية الفريضة بقوله ([156]):

سلوا البارِقَ النَّجدي من علَمَي نجدِ تبسَّمَ فاستبكى جُفوني من الوَجدِ

أجادَ ربوعي باللوى بورك اللوى وسَحَّ بهِ صَوبَ الغمائم مِن بَعدي

ويختمها بذكر مكانة ابن خلدون بقوله:

بقيتَ ابن خلدون إمام هِدايةٍ ولازلتَ من دنياكَ في جنة الخلدِ

كما يذكر ابن زمرك خلالها أنه قد وجّه إليه رسائل وقصائد غيرها لكنه لم يرد عليها، بقوله: ((ولقد وجهّت لك جملة من الكتب والقصائد، ولا كالقصيدة الفريدة في تأبين الجواهر التي استأثر بهم البحر، قدّس الله أرواحهم، وأعظم أجرك فيهم، فإنها أنافت على مائة وخمسين بيتاً، ولا أدري هل بلغكم ذلك أم غاله الضياع، وغدر وصوله بُعد المسافة، والذي يطرق لي سوء الظن بذلك، ما صدر في مُقابلهِ منكم، فإني على علمٍ من كرم قصدكم، وحسن عهدكم. ومن حين استقل نيّركم بذلك الأفق الشرقي، لم يصلني كتاب، مع علمي بضياع اثنين منها بهذا الأفق الغربي. انتهى)) ([157]).

فيلتمس الأعذار لابن خلدون في عدم تواصله معه ورده على تعزيته الشعرية له بغرق أهله، لكن يبدو أن ابن خلدون لم يكن فعلاً مهتماً بالتواصل مع ابن زمرك، وربما يعود ذلك الى وفائه لصديقه لسان الدين بن الخطيب بعد أن اختلف معه تلميذه ابن زمرك حتى قيل أن له يد في قتله، ومما يؤيد عدم اهتمام ابن خلدون بالتواصل مع ابن زمرك أنه لم يكمل توثيق ما كتبه ابن زمرك له متوقفاً عن ذلك ومعللاً بقوله: ((وفي الكتاب فصول أخرى في أغراض متعددة لا حاجة الى ذكرها هنا)) ([158]).

كما اثبت ابن خلدون ايضاً من ضمن تواصله الشعري مع أهل الأندلس بعد رحيله عنها ما كتبه له قاضي الجماعة بغرناطة أبو الحسن علي بن الحسن البِنّي النباهي (ت بعد 793هـ) من رسالة يتضمنها ثلاثة عشر بيتاً شعرياً، بيتان منهما في ابتعاد ابن خلدون عن القضاء، ظنًا من النباهي أولاً أنه قد أُقصي عنه دون رغبته فاستشهد بهما من نظم شيخه ابن الجياب ([159]) كان قد نظمهما ضمن مقطوعة له عند انفصال أحد أصحابه عن خطة القضاء، يقول فيهما:

لا مرحبًا بالناشز الفارك إذ جهلت رفعَة مقـــدارك

---

156 م.ن،210؛ ونص الرسالة كاملاً من210-218.

157 م.ن ، 215-216.

158 م.ن ، 218.

159 هو الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان الغرناطي المعروف بابن الجيّاب ت749هـ ، رئيس الكتّاب وشيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية، وكاتب السلطان بغرناطة ينظر: نفح الطيب ،98/5؛ تاريخ قضاة الأندلس المسمى كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق الفتيا: أبو الحسن النباهي المالقي، 171 .

لو أنها قد أوتيت رشدها ما برِحت تعشو إلى نارك

ويبدو أن هذه القطعة الشعرية كان لها وقعها عند القاضي النباهي إذ يقول عنها في كتابه المرقبة العليا: ((وهذه القطعة قد بلغت الغاية من البراعة، وتمكّن البلاغة، وإن كان في طيّ ما تضمّنته من وصف الخطة الشرعية بالناشز الفارك، وبأنّها لم تؤتَ رشدَها ما فيه)) ([160]).

ثم يتبين للقاضي النباهي فيما بعد أن تنحي ابن خلدون جاء عن رغبة منه وبموافقة السلطان فيذكر أحد عشر بيتًا يقدّم لها بأنه رددها متوهمًا مشاهدة ابن خلدون، أولها:

لكَ الله يا بدرَ الســـــماحة والبشرِ لقد حُزتَ في الأحكامِ منزلة الفخرِ

ولكنك استعفيـــــــــتَ عنها تورّعًا وتلكَ سبيل الصالحيــن كما تدري

جريـــتَ على نهجِ السلامةِ في الذي تخيّرته أبشِر بأمنكَ في الحشـــرِ

وهكذا يستمر في مدح زهد ابن خلدون عن الدنيا والسلطة واتجاهه نحو العلم الذي لا ينفك عنه مدى العمر والذي فيه رفعته وخلوده في الدنيا والآخرة.

وتظهر المراوغة في الخطاب من القاضي النباهي الذي كان جل غايته التقرب من ابن خلدون سواءً كان قد تنحى عن منصبه برغبته أم أنه أُحيد عنها رغمًا عنه، وحين عدنا إلى كتاب (المرقبة العليا) الذي سمّاه طابعه باسم (تاريخ قضاة الأندلس) وجدنا انّ هذه الأبيات قد وثقها القاضي النباهي مع شيء من التغيير موجهها إلى القاضي أبو عبد الله محمد بن أحمد الطَّنجاليّ المتوفى سنة 753هـ بعد استعفائه من تبعات القضاء، فذكر في مناسبتها أنه كتبها له عند حلوله بمنزلهِ بالأبيات المبثوثة بَعدُ على جهة التسلية والتغبيط بالتخلية والمنظوم هو ما نصه ثم يدرج ستة عشر بيتًا من ضمنها الأبيات تلك التي وجهها لابن خلدون([161])، فهي إذن كان قد نظمها في القاضي الطَّنجالي ثم أعاد ذكرها النباهي مع بعض التغيير ووجهها إلى ابن خلدون لأنه قد ختم رسالته المرفقة معها هذه الأبيات مؤرخًا بصفر تسعين([162]).

وبهذا تكون مجمل الأبيات التي وجهها القاضي النباهي إلى ابن خلدون غير منظومة لأجله، فضلاً عن تقصيره في القطعة النثرية التي كتبها بخطه ولم يُجِد فيها حسب رأي ابن خلدون، ويعود ابن خلدون بعد ذكر سالته ليعتذر عن ذكرها في هذا الكتاب بقوله: ((وإنما كتبت هذه الأخبار وإن كانت خارجة عن غرض هذا التعريف بالمؤلف لأن فيها تحقيقاً لهذه الواقعات، وهي مذكورة في أماكنها من الكتاب فربما يحتاج الناظر إلى تحقيقها من هذا الموقع)) ([163])، ويبدو أن امتعاض ابن خلدون من ابن زمرك والقاضي النباهي ناتج عن موقفهما من لسان الدين بن الخطيب الذي كان قد أثر في حكمه على تواصلهما معه، وأنه لم يرضَ عنهما ولم يمدح تواصلهما الأدبي معه وإنما قد أثبت نصوصهما بحكم توثيق الأحداث في حياته لا غير.

في المقابل يظهر تحيّز ابن خلدون في هذا الكتاب مبرزاً للسان الدين ابن الخطيب حيث يصفه بأنه ((كان الصدر المقدّم في الشعر والكتابة)) ([164]) وهو الذي كان يؤمن بأنه لا تتفق الإجادة في فني المنظوم والمنثور معاً

160 تاريخ قضاة الأندلس،173.

161 ينظر: تاريخ قضاة الأندلس، 158-159.

162 ينظر: رحلة ابن خلدون، 220.

163 م.ن ، 221.

164 مقدمة ابن خلدون، 657.

الا للأقل[165]، وهي نظرة ناقد يعي ما يقول إذ نجد له أحكامًا نقدية للشعر وناظميه من ضمنها موافقته للنسق الثقافي الشائع في عصره آنذاك وتمجيده لشيوخه الذين يطلق عليهم اسم (أئمة اللسان) وما وضعوه من شروط لجيد الشعر الموافق للذوق من تجنب الضرورات الشعرية وتجنب التراكيب المعقدة وموافقة الألفاظ للمعاني، وتجنب كثرة المعاني في البيت الواحد التي تعد حشوًا وتشغل العقل وتتنافى مع الذوق في تقبّله للشعر السهل وتجنب الحوشي من الألفاظ والمقعر والسوقي المبتذل الذي يخرجه عن البلاغة[166]، وهذا كله يتناسب مع أسلوب ابن الخطيب الشعري الذي أُعجِب به، وميّز ذكره في تواصله الأدبي مع أهل الأندلس.

أفكار لبحوث مستقبلية متعلقة بالموضوع:

وإذا كنّا قد وقفنا على التواصل الأدبي لابن خلدون مع الأندلسيين فقط في هذا البحث بحكم اختصاصنا الدقيق في الأدب الأندلسي، فيمكن البحث في تواصله الأدبي مع أدباء من بلدان أخرى ويمكن عقد موازنات في تواصله الأدبي مع أدباء كل بلد من البلدان ودمجها مع نظرته الاجتماعية لساكني تلك البلدان، فهو قد أيقن أن توثيقه للمعلومات أثناء رحلاته وغيرها سيصبح محط اهتمام الباحثين يومًا ما كما هو حالنا اليوم منها بعد ما يربو على الستمائة والثلاثين عاماً رحمه الله وأكرم مثواه.

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم

الإحاطة في أخبار غرناطة: محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الأصل، الغرناطي الأندلسي، أبو عبد الله، الشهير بلسان الدين ابن الخطيب المتوفى: 776هـ ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1424هـ.

الادب الأندلسي موضوعاته وفنونه: د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1975م.

أدب الرحلات –دراسة تحليلية من منظور أنثوجرافي: د. حسين محمد فهيم، سلسلة عالم المعرفة 138 ، الكويت، 1409هـ–1989 م.

الأذكار من كلام سيد الأبرار المسمى حلية الأبرار وشعار الأخيار في تلخيص الدعوات والأذكار المستحبة في الليل والنهار: للإمام محي الدين أي زكريا يحيى بن شرف النووي ت676هـ ، دار المنهاج، جدة–السعودية، ط4، 1433هـ –2012م.

استراتيجيات الخطاب–مقارنة لغوية تداولية: عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت–لبنان، ط1، 2004م.

أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن وهو كتاب نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان : لأبي الوليد بن الأحمر الغرناطي الأندلسي، تح: د. محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1407هـ–1987م.

الأنساق الذهنية في الخطاب الشعري–التشعب والانسجام: د. جمال بندحمان، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2011م.

الأنواء في مواسم العرب: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ت 276هـ ، دار الشؤون الثقافية العامة،

165 م.ن ، 646.

166 ينظر: م.ن ،652–653؛ وينظر: سيمياء الحكي المركب–البرهان والعرفان: جمال بندحمان، 128–132.

وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، د.ط ، 1988م.

تاريخ الأدب العربي للمدارس الثانوية والعليا، أحمد حسن الزيات، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، طبعة مزيدة ومنقحة، د.ت .

تاريخ قضاة الأندلس المسمى كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق الفتيا: الشيخ أبو الحسن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي الأندلسي، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت–لبنان، ط5، 1403هـ–1983م.

جواهر الادب في أدبيات وإنشاء لغة العرب: السيد أحمد الهاشمي، دار الجيل، بيروت، القاهرة، تونس، طبعة جديدة محققة ومنقحة، د.ت .

الخطاب الأدبي ورهانات التأويل–قراءات نصية تداولية حجاجية: أ.د. نعمان بوقرة، عالم الكتب الحديث، إربد–الأردن، ط1، 2012م.

دراسات حضارية في التاريخ الأندلسي: د. محمد بشير حسن راضي العامري، دار غيداء للنشر، عمّان–الأردن، ط1 ،1433هـ –2012م.

ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام: لسان الدين بن الخطيب، تح: د. محمد الشريف قاهر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1973م.

رحلة ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي ت808هـ ، تح: محمد بن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، ط2، 2009م.

سيمياء الحكي المركب–البرهان والعرفان: د. جمال بندحمان، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2014م.

في التداولية المعاصرة والتواصل: أ.مولز –ك.زيلتمان–ك.أوريكيوني، ترجمة وتعليق: د. محمد نظيف، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء–المغرب، د.ط ، 2014م

لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري: محمد عبد الله عنان، مطبعة الاستقلال الكبرى، القاهرة، ط1، 1388هـ–1968م.

لسان العرب المحيط، قدم له الشيخ عبد الله العلايلي، تصنيف يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت، د.ط ، د.ت .

لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة: د. عبد الفتاح أحمد يوسف، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت–لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1431هـ–2010م.

لسانيات النص–نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري: د. أحمد مداس، عالم الكتب الحديث، إربد–الأردن، ط2، 1430هـ–2009م.

معجم البلاغة العربية: د. بدوي طبانة، منشورات جامعة طرابلس/ كلية التربية، طرابلس الغرب، ط1 ،1975م.

معجم البلدان: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي المتوفى: 626هـ ، دار صادر، بيروت، ط2، 1995 م.

مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، دراسة: احمد الزعبي، دار الأرقم أبي الأرقم، بيروت–لبنان، د، ط ، 2001م.

النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس مضامينه واشكاله: علي بن محمد، دار الغرب الإسلامي، بيروت–لبنان، ط1، 1990م.

النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين: د. حازم عبد الله خضر، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1981م.
نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان: لابن الأحمر الأمير إسماعيل بن يوسف بن محمد ت 807هـ –دراسة في حياته وأدبه، دراسة وتحقيق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، 1967م.
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني المتوفى: 1041هـ ، المحقق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت – لبنان، د.ط ، 1997م.
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي المتوفى: 681هـ ، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، د.ط ، 1900م.

الأطاريح الجامعية:

المكان في رسائل ابي حفص الهوزني، ابن زيدون، ابي المطرف بن نميرة، لسان الدين بن الخطيب، ابي عبد الله الصغير : واقدة يوسف كريم، أطروحة دكتوراه ، بإشراف: أ.م.د. غانم سعيد حسن، جامعة الموصل، كلية التربية، 1434هـ–2013م.

الدوريات:

بنية قصيدة المولد النبوي في الأندلس والمغرب حتى القرن التاسع الهجري: د. عبد الحليم حسين المهروط، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ع82، س2012م.
خطاب الرحلة الأندلسية عند ابن خلدون ومقاصده: أ.م.د. غيداء أحمد سعدون، مجلة الجامعة العراقية ضمن العدد الخاص بأبحاث المؤتمر العلمي الدولي الرابع المشترك بين الجامعة العراقية وجامعة دهوك بالتعاون مع مركز نون للبحوث والدراسات المتخصصة للمدة من 16–17 كانون الأول 2020م.
المساجلات الشعرية في الروضة الأندلسية: أ.د. ابتسام مرهون الصفار، مجلة الأندلس، الجزائر، مج6، ع24، 1442هـ–2020م.

عن شبكة الأنترنت:

ويكيبيديا، ar.m.wikipedia.org.